3

قضايا وأفكار

مقالات متنوّعة في شؤون الدِّين والحياة

الشيخ
علي حسن غلوم

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين (ع)
لبنان ـ حارة حريك



الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م

إصدار المركز الإسلامي الثقافي

لبنان ـ حارة حريك ـ مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

هاتف: ٠١/٥٥٧٠٠٠ ـ ٠١/٥٤٤٤٠٢

خليوي: ٠٣/٥٦٥٠٧٤

❊ ❊ ❊

البريد الإلكتروني

info@tawasolonline.net

info@fadlullahlibrary.com

❊ ❊ ❊

المواقع الإلكترونية ـ المركز الإسلامي الثقافي

www.tawasolonline.net

www.fadlullahlibrary.com

youtube/tawasolonline

Facebook:

مكتبة العلّامة المرجع السيّد فضل الله العامة

تواصل أون لاين

٣

قضايا وأفكار

مقالات متنوّعة
في شؤون الدِّين والحياة

الشيخ
علي حسن غلوم

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام
لبنان ـ حارة حريك

المقدّمة

ويتابع مشكوراً سماحة الشيخ علي غلوم تزويدنا بالأفكار والقضايا، هذه الأفكار والقضايا التي تتنوّع بتنوّع موضوعاتها.. منها ما له علاقة بالعقيدة، وأخرى تتناول قضايا اجتماعية، يلقي الضوء عليها ـ سماحته ـ بسلبيّاتها وإيجابيّاتها، ومنها ما يتناول مفاهيم إسلاميّة إنسانيّة حضاريّة، وهي تشكّل بمجملها أفكاراً نيّرة وقضايا مُلحّة، وتمتاز بعمق الفكرة والأسلوب الرشيق والمعاني والواضحة.. وهي زادٌ ثقافي، يُغني شبابنا وفتياتنا بثقافة رسالية واعية..

أسأل المولى المزيد من التوفيق لسماحة الشيخ علي غلوم ولكلّ العاملين في درب الله...

والله الموفّق والمسدّد

مدير المركز الإسلامي الثّقافيّ

شفيق محمّد الموسوي

ذو الحجة ١٤٣٣ هـ

تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٢ م

الكرامة الإنسانيّة

للعناوين المشتركة بين الناس دورٌ في رسم طبيعة العلاقة والمشاعر المتبادلة فيما بينهم، فمن الطبيعي أن تجد لوحدة العنوان الذي يجمعك بالآخر الأثر في قوّة مشاعرك تجاهه.. فعندما تلتقي بأحد أبناء بلدك وأنت على بعد آلاف الكيلومترات، فإنّ مشاعرك تجاهه تكون قوية، لربّما مع وجود اختلافات كثيرة بينك وبينه من حيث الانتماء الأُسري والعرقي وغير ذلك.. إلا أنك تتناسى كلّ ذلك وتركّز على ذلك العنوان المشترك.

من الطبيعي أن يكون لوحدة الانتماء أثرٌ في تنظيم وقوة العلاقة.. فالعلاقة بين المنتمين إلى دين واحد عادة ما تكون أوثق من غيرها، ويتمّ تناسي الكثير من الفروقات كالانتماء الوطني والقومي، بسبب تقديم ذلك العنوان على سواه. وكلّما زادت العناوين المشتركة بين الطرفين كلّما توقّعنا علاقة أقوى ومشاعر أقوى.

ومن النصوص الإسلامية ما يؤكّد ويشجّع على ذلك في دائرة الانتماء إلى الإسلام، كقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١]، وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ

﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]. وقول النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم: «**المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً**» وغير ذلك كثير، وهي تؤكّد على فضل الإسلام ومدخليّته في كمال الشخصيّة وفي قيمة الإنسان عند الله، وفي تفاصيل نُظُم العلاقة بين المسلمين.

بل ومن النصوص ما ينظّم أولويّات العناوين المشتركة، كقول الله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [التوبة:٢٣]. وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلا بِالتَّقْوَى**».

ويلات النظرة الاستعلائية

ولكن كلّ هذا لا يعني ازدراء مَن هم خارج تلك الأطر، ولا انتهاك حرماتهم وحقوقهم المادية والمعنوية ما دامت الأمور والعلاقات في سياقها الطبيعي، وقد قال سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ [الإسراء:٧٠].

وقد جلبت هذه النظرة الازدرائية والاستعلائية الويلات والدمار للبشرية على طول التاريخ، سواء أَصَدَرت من منطلق ديني أو قومي أو غير ذلك. ولك أن تقرأ التاريخ في بعض أسباب الحروب بين اليونان والفرس، والرومان والفرس، والحرب العالمية الثانية وعلاقتها بالنازية العنصرية، وغير ذلك كثير لتتجلّى الصورة بشكل أوضح. وفي القرآن الكريم تنديد بذلك، قال سبحانه: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ**

﴿الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:٧٥ ـ ٧٦]. وكان منطلق ذلك في الأصل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨]. فهذه النظرة الاستعلائية ولّدت حالة من الازدراء للآخر المختلف، وأخرجته من الدائرة الإنسانية بإهدار كرامته، فاستباحت ممتلكاته وحرماته.

وللأسف يكرّر بعض المسلمين الأخطاء نفسها بينما الآية وفي الوقت الذي تندّد فيه بخطأ ذلك المفهوم وانحراف ذلك السلوك، ترسل رسالة للمسلمين أنّ الله لا يريد لهم أن يأخذوا بهذه النظرة ولا أن يتعاملوا مع غيرهم بهذا الأسلوب، فالمطلوب هو: ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ [آل عمران:٧٦] في كل تعاملاته ومع الجميع ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:٧٦]. فهذا أصل أخلاقي لا يتبدّل ما دام الآخر لم يهدر كرامته وكرامتي الإنسانية من خلال إعلان الحرب عليّ، أو بسرقة أموالي وأمثال ذلك.

أصل الكرامة

ولذا فالأصل أنّ للإنسان ـ أي إنسان ـ كرامة، وأنّ التعامل بين المسلم والآخر يجب أن يقوم على أساس احترام كرامة الآخر التي هي هبة إلهية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]، وقد قال العلامة الطباطبائي في تفسير الآية: «يظهر أنّ المراد بالآية بيانُ حالٍ لعامة البشر مع الغض عمّا يختصّ به بعضهم من الكرامة الخاصة الإلهيّة، والقرب والفضيلة الروحية المحضة، فالكلام يعمّ المشركين والكفّار والفساق».

وإلى هذا أشار الفقيه الراحل الشيخ المنتظري بقوله: «نحن نعتقد أنّ القرآن إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]، فهو يقصد أنّ بني آدم مكرّمون

لأنّهم بنو آدم، فحينما يقال حقوق الإنسان، معنى ذلك أن للإنسان شرفَه وكرامتَه بما هو إنسان، حتى لو كان كافراً، لأن الإنسان محترم بذاته عند الله، وهذا صريح معنى الآية. ويقول علي عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «**الناس صنفان إمّا أخٌ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق**»، وبالتالي فإنّ للإنسان حرمته بما هو إنسان».

فقه العلاقة بالآخر

ولعلّ تأسيس هذا الأمر كأصل، يكون من المنطلقات التي يعيد من خلالها الفقهاء المسلمون عموماً قراءة الأدلّة المتعلّقة بفقه العلاقة مع الآخر، من قبيل مسألة كراهة ابتداء غير المسلمين بالتحيّة، وحرمة تهنئتهم في أعيادهم، وأن لا يُترك للذميّ صدر الطريق، وأن يُضطرّ إلى أضيق الطرق، وإباحة أموالهم وإن لم يكونوا حربيّين، والحكم بنجاسة غير المسلم أو غير الكتابي، وغيرها من المسائل.. بل كيف يمكن أن تفتح قلب الآخر لتدعوه إلى الهدى، وقد بنيت بينك وبينه ألف حاجز وحاجز تحت عنوان النجاسة والاحتقار ونقص الإنسانية وغير ذلك؟ إنّ وفد نصارى نجران وإن لم يحترموا خصوصية مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وتلوا صلواتهم فيه بغير استئذان وبحضور النبيّ(ص)، إلّا أنّ رسول الله لم يسمح لأحد بالتعرّض إليهم، ولم يطردهم ولم يقطع عليهم صلواتِهم.. وأقرَّهم أخيراً على دينِهم.. فهل من مدَّكر؟

❀❀❀

الفطرة الإنسانية

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان على فطرة التوحيد: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠]. وهذه الفطرة تهدي الإنسان إلى أنّه لا يستطيع أن ينفكّ في وجوده عن الله، لا في أصل وجوده ولا في استمراره في هذه الحياة. ولذا فهو محتاج إلى الله في كل شيء.

وقد سأل رجل الإمام جعفر الصادق عليه السلام: يا ابن رسول الله، دلني على الله ما هو؟ فقد أكثر عليَّ المجادلون وحيّروني. فقال له: **يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟** قال: نعم. قال: **فهل كُسِر بك حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟** قال: نعم. قال: **فهل تعلّق قلبك هنالك أن شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلّصك من ورطتك؟** قال: نعم. قال الصادق عليه السلام: **فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث.**

المصدر: بحار الأنوار ـ العلّامة المجلسي ـ ج ٣ ـ ص ٤١.

ومن هنا فإنّنا نؤكّد على خطأ النظرية الغربيّة المادية في تاريخ البشرية والتي تقرّر أن الإنسان وُجد دون أن يكون له أيّ دين، ولا معرفة بالله ـ سبحانه ـ خالقه، وأنّ خوفه من النار والعواصف وما شابه، أو طمعه في عطاء السّحاب والريح

وبعض المخلوقات، هو الذي دفعه لاختراع الدين وعبادة المخلوقات، ومن ثم ابتدع عبادة الإله الأعظم أو دين التوحيد.

وخطأ هذه النظرية ناشئ من أنّ الإنسان يولد، ويُولَد معه الاعتقاد بالإله الخالق الذي يملك كلّ شيء والقادر على كلّ شيء، وهذا الاعتقاد يبقى ساريَ المفعول لولا بعض العوامل من قبيل التربية المنحرفة أو البيئة السلبية. ولذا جاء عن النبي(ص) «**كلّ مولود يولَد على الفطرة حتى يكون أبواه يهوّدانه وينصّرانه**».

المصدر: بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ـ ج ٣ ـ ص ٢٨١.

ولذا فإذا أعطي الإنسان حريّته، وابتعد عن تأثير الشّهوات والمؤثرات الخارجية كالتربية فإنّ فطرته ستهديه إلى التوحيد والارتباط بالخالق لا محالة.

العقل البشري

والعقل البشري يهدي إلى التوحيد أيضاً وضرورة الارتباط بالخالق صاحب القوّة المطلقة، وقد أكّدت الآيات القرآنية على أنّ المؤمن هو صاحب العقل، وأنّ الكافر لا يحرّك عقله في هذا المجال بالشكل الصحيح. قال تعالى: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ١٧١]. فالآية تقرّر أنّ حال الكافر الذي لا يؤمن بوجود الله كحال البهيمة التي لا تفهم ما يقوله الراعي، سوى أنها تدرك أنّه يُصدر أصواتاً فتستجيب دائماً استجابة واحدة مهما قال الراعي. فالذين كفروا أصمّوا آذانهم، فهم ليسوا على استعداد للاستماع إلى الحقّ، وأخرسوا ألسنتهم فهم ليسوا على استعداد للنقاش، وأعمّوا أبصارهم فلا يرون الحقّ الدال على بطلان عقيدتهم، ولذا فهم لايعقلون.

ولو تُرك المجال للعقل البشري وأُعطي حريّة التفكير وحطّم أغلال التقليد واتّباع الآباء والأجداد، وابتعد عن تأثير الشهوات، فإنّه سيصل إلى الحقيقة

وهي وجود الخالق المدبّر الذي يحتاج إليه الإنسان على كل حال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ*الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]

العلم

الدين لا يخالف العلم الذي خرج من حدّ النظرية إلى مستوى اليقين، ولا العلم يعارض الدين بل يهدي إليه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ [فاطر:٢٨]. وقد كتب الكثير من كبار العلماء في المجالات المختلفة كتباً ومقالات حول هداية العلم إلى الله، من بينها كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم» لمؤلفه كريسي موريسون وآخرين وكتاب الأديب المرحوم عباس محمد العقّاد (عقائد المفكرين).

وقد ذكر العالمان السوفيتيّان (فاسين و واشرباكوف) على أثر اطلاعهما على النتائج التي أعلنها العلماء الأميركيون لدراسة تربة القمر «إنّ الدراسة العلمية الحديثة ترفض كلّ النظريات الشائعة عن أصل القمر، ولا تقبل إلا تفسيراً واحداً، وهو أنّ القمر مصنوع صنعاً دقيقاً ومُحكماً، وأن الذي صنعته قوّة مذهلة تملك من الطاقات ما لا يملكه أيّ كائن من الكائنات.. إنّ الدراسة العلمية تبدأ بفكرة جديدة، وتقول هذه الفكرة الجديدة: إنّ في القمر ظواهر يستحيل أن توجد بالصدفة.. كلا، إنّها تمّت بيد عالمة قادرة قد أحكمت صنع القمر إحكاماً مذهلاً».

المصدر: جريدة الأخبار المصرية عدد ٦/ ٢/ ١٩٧٠.

إن الإيمان بالله ليس ثمرةً للوهم والتقليد، ولا لتفسير ما نجهل تفسيره من ظواهر الطبيعة، ولا لنخوّف به المردة الطغاة، ولا لنخدّر به المستضعفين من الشعوب، ولا فراراً من حيرة العقل، ولا إرضاءً لحاجة روحية وتعليلاً لأمنية

نفسية، وإنّما هو ثمرة حتمية لمنطق الحسّ والعقل، وشهادة البصر والبصيرة ولا شيء أصدق في الدلالة على هذه الحقيقة من نهيه تعالى في العديد من آياته عن اتّباع الحدس والظنّ، وأمره بالاعتماد على البصر والبصيرة كطريق إلى معرفته والإيمان بعظمته، ومن كفر وجحد فقد خالف الحقّ عناداً له، أو جهلاً به لتقصيره في البحث والنظر أو لقصوره في العقل والفكر.

❀❀❀

المفهوم الأخلاقي

روى الشيخ محمد بن علي الصدوق (رحمه الله) في كتابه معاني الأخبار: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **ألَا أنبِّئكم بشرّ الناس؟** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **مَنْ أبغض الناس وأبغضه الناس**، ثم قال: **ألَا أنبّئكم بشرٍّ من هذا؟** قالوا: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: **الذي لا يقيل عثرة، ولا يقبل معذرة، ولا يغفر ذنباً**، ثم قال: **ألا أنبّئكم بشرٍّ من هذا؟** قالوا: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: **مَنْ لا يُؤمَن شرُّهُ، ولا يُرجَى خيرُه...**».

يتعامل الإسلام مع الأخلاق على أنّها قوة إيجابية بنّاءة، وليست مجرّد زواجر ونواهٍ تقيّـد إرادة الفرد فتُدخله في قفص من الموانع والمحرّمات التي تكبت حريّته وتقتل فيه إرادة التعبير عن الذات كما يتصوّر المادّيون، وكما أوحت لهم ضروبٌ من المفاهيم المنتزعة من مجتمعاتهم الغربية التي عانت من فترة الحكم الكنسي، وبسبب ما شاهدوه من تعامل أخلاقي مشوّه، وتحريف لمعنى الأخلاق.

عندما هاجم الأخلاق كلٌّ من: ماركس وسارتر ودوركايم وفرويد وغيرهم، فإنّهم وقفوا موقف ردّة الفعل من سلطات وأنظمة وتقاليد تزيّف الأخلاق، وتستعمل الدعوة الأخلاقية للخداع والتضليل والنفاق، أمثال سلطة الكنيسة والإقطاع والرأسمالية وتقاليد المجتمعات المتأثّرة بهذا التيار، فشجّعهم ذلك

على الهجوم على الأخلاق ورفع شعار المحاربة والرفض، وتعليل الأخلاق بأنّها أداة خداع وتزييف وتسلّط بيد المتسلّطين.

التربية الأخلاقية في الإسلام تعني بناء قوّة ذاتية لدى الفرد ينطلق منها للعطاء الإيجابي المثمر، وذلك من خلال عدّة أسس:

١ ـ ضبط الموازنة الأخلاقية بين الفرد وبين الآخرين الذين يتعامل معهم، فالموقف الأخلاقي لا يكون موقفاً في نظر الإسلام إلا إذا كان الإنسان يتعامل مع الآخرين على أساس حبّ الخير لهم واعتبارهم أطرافاً متعادلة معه، يجب أن يحقّق لهم ما يحقّق لنفسه. «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه**» النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. وعلى هذه القاعدة صاغ الإمام علي عليه السلام وصيّته لابنه الحسن(ع) فكان فيما قال له: «**يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبَّ لغيرك ما تحبُّ لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحبّ أن تُـظلم، وأحسِن كما تُـحب أن يُـحسَن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم، وإن قلَّ ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يُـقال لك**».

٢ ـ الأخلاق الإسلامية ليست أخلاقاً سلبيّة، لأنّها لا تكتفي باستعمال كلمة (لا تفعل).

* فهي تطالب بالصبر ﴿**وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ**﴾ [لقمان:١٧]، ولكنّها في نفس الوقت تنهاه عن الرضى بالذلّ والهوان والسّكوت على الظلم والخنوع «**إنّ الله فوّض للمؤمن أموره كلّها، ولم يفوّض إليه أن يكون ذليلاً**» الإمام جعفر الصادق.

* وتطالب بالحِلْم وعدم الانقياد للقوّة الغضبية في مواقع الصراع والاحتكاك بالآخرين ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل

عمران:١٣٤]، ولكنّها تُلزِمه بأن يغضب للحقّ، وتنهاه عن السكوت على الباطل «**إنّ أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر**» النبيّ الأكرم.

* وهي تأمر بالعطف على الفقير وإعانته «**مَنْ واسى الفقير وأنصف الناس من نفسه فذلك المؤمن حقّاً**» النبيّ الأكرم، ولكنّها ترفض الاتّكالية والتربية على الضعف «**خيرُ الغِنى غِنى النفس**» النبيّ الأكرم.

وهكذا نجد التربية الأخلاقية في الإسلام تسعى لتحقيق الاعتدال والاتّزان في المواقف المختلفة والانفعالات المتباينة ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [هود:١١٢]

٣ ـ تمتاز الأخلاق الإسلامية بأنّها عمل معنوي بلا مقابل، ولا يُطْلَب من ورائها جزاءٌ ماديٌّ أو نفعيّ، فهي فعل الخير من أجل الخير، وقد ضرب لنا القرآن الكريم مثلاً رائعاً للأخلاق العملية في الإسلام حينما تحدّث عن موقف الإمام علي عليه السلام وأهل بيته: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً*إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً**﴾ [الإنسان:٨ـ٩] ولا تقف المسألة عند هذا الحدّ بل تتجاوزه ليكون صدور الخير من الإنسان حتى مع صدور الموقف السلبيّ الشرير من الطرف الآخر. وقد روي أن هشام بن إسماعيل المخزومي كان والياً على المدينة لعبد الملك بن مروان، وقد أساء إلى الإمام علي بن الحسين زين العابدين(ع) ولحقه منه أذى كثيراً، فلما مات عبد الملك، عزله الوليد بن عبد الملك، وأوقفه في إحدى ساحات المدينة المنوّرة للناس كي يهينوه ويقتصّ منه مَنْ أراد، فقال الوالي المعزول: والله إنّي لا أخاف إلا عليّ بن الحسين، وذلك لشدّة ما آذاه، فمرّ عليه الإمام عليّ بن الحسين، وسلّم عليه، وأمر خاصّته أن لا يتعرّض له أحد بسوء، وأرسل له: «**إن كان أعجزك مال تؤخذ به، فعندنا ما يسعك، ويسدّ حاجتك، فَطِبْ نفساً منّا، ومن كلّ من يطيعنا**».

صراع الغرائز

عندما يفقد الإنسان قوّة العقل والعاطفة في مواجهة أهوائه الجارفة فيستسلم لها، فإنّه يعيش حالة من القلق والصراع النفسي والارتباك وفقدان التوازن الروحي بصورة عنيفة، ومردّ ذلك أحياناً إلى حالة التنازع بين الأهواء المتعدّدة والمتخالفة، وكلّ هُوَىَ من هذه الأهواء الكثيرة في النفس يتطلّب الاستجابة والإشباع. ولنضرب لذلك بعض الأمثلة:

١ ـ قد يقع الإنسان فريسة بين غريزة الانتقام والغضب من جهة، وغريزة حبّ الحياة والجاه والسّلطان من جهة أخرى، فيتطلّب منه حبُّ السّلطان والجاه المداراةَ والرّفق والرّفق بالمعارضين، وتدفعه غريزة الانتقام والغضب إلى الفتك بأعدائه المعارضين له.. الأمر الذي يجعله يعيش صراعاً نفسياً قد يصبح عنيفاً تَبَعاً لدائرة السلطة وحجمها، مع العلم أنّ الرفق والمداراة هنا ليستا من الحِلْم الذي يُعدّ من جنود العقل، وإنّما هو من إيثارِ هوى على هوىً.

٢ ـ وقد يقع التضارب بين غريزة حبّ الجاه والسّلطان والموقع الاجتماعي الذي يتطلّب مستوى معيّناً من اللياقات الاجتماعية، وسائر الغرائز التي ترفض هذه اللياقات الاجتماعية كالغريزة الجنسية مثلاً، علماً بأن ضبط الغريزة الجنسية والتحكّم لكسب هذه اللياقات والاعتبارات الاجتماعية ليست من العفّة في شيء،

وإنّما هي إيثار هوى على هوى آخر، ويتّفق كثيراً أنّ غريزة الجنس تغلب غريزة حبّ الجاه، فتصبح الغريزة الجنسية مصدراً للفضائح الجنسية التي يتعرض لها بعض الشخصيات العامة بين حين وآخر.

٣ ـ وقد يقع الإنسان فريسة للصراع بين غريزة حبّ الجاه والسلطان وغريزة الخوف على النفس. . فتتطلب الغريزة الأولى الهجوم والفتك والمجازفة بينما تتطلّب الغريزة الثانية التريّث والتحفّظ والأخذ بالاحتياط.

هذه بعض الأمثلة على صراع الأهواء والغرائز داخل النفس، والتضارب والصراع من هذا القبيل أمر شائع في حياة الإنسان. يقول الله سبحانه وتعالى **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾** [التوبة:٥٥].

عذاب آخر

يلقى الإنسان الذي يسلّم نفسه لأهوائه لوناً آخر من ألوان المعاناة، ففي كلّ هوى من الأهواء عذابٌ يخصّه، وإن شعر الإنسان بنوع من اللّذة الآنيّة. كذلك الانسان الذي يريد أن يبني بيتاً ولكنّه يريده بيتاً متميّزاً على سائر البيوت، متفوّقاً في تصميمه ومواد بنائه وتأثيثه وألوانه و. . و. . و. . من القائمة التي كأنّها لا نهاية لها، تخيّل كيف يكون حال هذا الإنسان الذي يبقى يبحث ويقارن ويبني فيهدم، ويتقدّم خطوة ثم يتراجع عشراً، ويتكلّف أموالاً يتألّم على إنفاقها، حتى إذا انتهى بعد سنوات وسنوات من مشروعه هذا وشعر بلذّة ما، تجده يعيش هاجس المقارنة والخوف من أن يتفوّق عليه أحد في ما أنجز، ثم يتحوّل إنجازه بمرور الأيام إلى وجود عادي يملّه فيبدأ يدخل في دوامة جديدة من التفكير والمعاناة النفسية في كيفية الخروج من هذا المأزق.

ولعلّ إلى هذه الحالة من المعاناة أشار الإمام علي عليه السلام حيث قال : «ما أعجب أمر الإنسان :

ـ إن سنح له الرجاء أذلّه الطمع.

ـ وإن هاج به الطمع أهلكه الحِرص.

ـ وإنَ مِلكه اليأس قتله الأسف.

ـ وإن سعد نسيَ التحفّظ.

ـ وإن ناله خوفٌ حيّره التحفّظ.

ـ وإن اتّسع له الأمن آلمته الغرّة (الغفلة).

ـ وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع.

ـ وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى.

ـ وإن عضّته فاقة شمله البلاء.

ـ وإن جهده الجوع قعد به الضعف.

ـ وإن أفرط في الشبع كظّته (كناية عن امتلاء البطن) البِطْنَة.

فكلّ تقصير به مضرٌّ، وكلّ إفراط به مفسد، وكلّ خير معه شرّ، وكلّ شرّ له آفة».

فلاحظ كل هذه الآلام النفسية التي تجعل الإنسان يعاني ويعاني :

ـ يستسلم لهوى القوة والاعتلاء على الآخرين، فيعاني من كثرة الشكوك فيما وفيمن حوله.

ـ ويستسلم لهوى حبّ الذات المفرط، فيعاني من مقارنة أوضاعه بأوضاع الآخرين الذين يفوقونه مالاً أو جمالاً أو شهرة.

ـ ويقبل إقبالاً شديداً على الدنيا، فيتألّم من شدّة الحسرة على ما ضاع من بين يديه أو خوفاً من فقدان ما يملك.

ـ ويعيش اللّذات ويركن إلى النعمة ويغفل عن واقع الحياة، فيبتلى بالمبالغة في الحزن عند المصائب

وغير ذلك من المعادلات النفسية... فهل يمكن أن نتصوّر أنّ إنساناً يعيش كلّاً أو بعض هذه الآلام هو إنسان سعيد؟

عن عليّ عليه السلام: «**عباد الله! إنّ مِنْ أَحَبِّ عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه... قد خلع سرابيل الشهوات، وتخلّى من الهموم إلا همّاً واحداً انفرد به، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى**».

❀❀❀

برّ الوالدين

أَولى القران الكريم اهتماماً بالغاً بالوالدين فتكرّرت منه الوصايا بهما في أكثر من موضع ومناسبة، والملاحظ في ذلك أمور:

قُرِنَ الإحسان إليهما بأهم أصل من أصول العقيدة فقال تعالى :﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانا**﴾ [الاسراء:٢٣]، فالتوحيد ليس حالة تجريدية نظرية يعيشها الإنسان في عقله، بل أساس تتفرع عنه الكثير من الالتزامات التي يُراد لها أن تحقّق للإنسان إنسانيّته في أرقى صورها ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم*ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ*إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [التين:٤ ـ ٦]، ومن أهمّ تلك الالتزامات التي تؤكّد الطاعة لله وترتقي بالإنسان في أخلاقه وسلوكه وقيمته الاجتماعية وقيمته الأخروية: الإحسان إلى الوالدين. وفي الكافي حديث رائع يقدّم صوراً سريعة لانتزاعات مفاهيمية من القرآن تخصّ هذا الإحسان والبرّ بالوالدين، فعن أبي ولّاد الحنّاط قال: سألت أبا عبد الله(ع) عن قول الله عزّ وجلّ ﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانا**﴾ [الإسراء:٢٣] ما هذا الإحسان؟ فقال: «**الإحسان أن تحسن صحبتهما** ـ بكلّ ما لكلمة الإحسان من صور، ابتداءً من الابتسامة والتحيّة الطيّبة وتقبيل الرأس واليد واستعمال الأسلوب الأمثل في الكلام مروراً بالمساعدة وقضاء الحوائج إلخ ـ **وأن لا تكلّفهما أن يسألاك شيئاً ممّا يحتاجان إليه وإن كانا مستغنيَين،**

أليس يقول الله عزّ وجلّ: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]؟ فإذا كنت تؤمن بأن عليك أن تتعامل مع الغريب المحتاج بهذه الروحية، فمن الأولى أن تعامل والديك بهذه الصورة ـ قال: ثم قال أبو عبدالله(ع): وأمّا قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾ قال: **إن أضجراك فلا تقل لهما أُفٍّ، ولا تنهرهما إن ضرباك:** قال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣] قال: **إن ضرباك فقل لهما: غفر الله لكما، فذلك منك قولٌ كريم،** قال: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤] قال: **لا تملأ عينيك من النظر إليهما** ـ أي لا تحدّق فيهما ـ **إلا برحمة ورقّة** ـ بحيث يكون التحديق مقروناً بابتسامة الرضا والحبّ والحنان والمشاعر الطيّبة لا تحديق الغاضب الكاره المحتقر اللّائم المتمنّي لموتهما والخلاص منهما ـ **ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما ولا يدك فوق أيديهما ولا تقدّم قدامهما».**

أكّد على أنّ الوفاء معهما يمثّل وفاء بعهد وميثاق أُخذ على الانسان: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [البقرة:٨٣]. ولا يخفى علينا أنّ مثل هذا التنبيه على أخذ الميثاق من بني إسرائيل يتضمّن دعوة للمسلمين أيضاً للالتزام إيماناً بوحدة الخطّ العام للرسالات والتشريعات السماوية. ومن جديد نلحظ الاقتران المباشر ما بين التوحيد والعبودية لله من جهة، وما بين الإحسان إلى الوالدين من جهة أخرى كأول انعكاس عملي للبعد الاجتماعي في الإيمان بالله سبحانه، باعتبار أنّ الأسرة هي اللّبنة الأولى في المجتمع، وهي مدرسة الأجيال، وهي التي تفرز الإنسان الصالح أو الفاسد، فكان من الضروري تأسيس العلاقة السليمة بين مكوناتها، ولعلّ التركيز على الإحسان إلى الوالدين دون إحسان الآباء بالأبناء باعتبار أن الثاني حالة غريزية طبيعية لا تحتاج إلى مزيد عناية، بخلاف الأولى التي قد نشهد فيها تمرّداً في حالات كثير.

شاعر وأديب فرنسي اسمه (لامارتين) كتب قصيدة في هذا الإطار عرّبها الشاعر اللبناني إبراهيم المنذر، ثم نسج أبيات مكملة لها، قال لامارتين:

أغرى امرئ يوماً غلاماً جاهلاً بنقوده كيما ينال به الوَطَرْ
قال ائتني بفؤاد أمك يا فتى ولك الدراهمُ والجواهرُ والدُّرَرْ
فمضى وأغرز خِنجراً في صدرها والقلبُ أخرجَه وعاد على الأثرْ
لكنّه من فَـرْط سرعته هوى فتدحرج القلب المُقطَّع إذ عثَرْ
نـاده قلبُ الأم وهـو معفّـر ولدي حبيبي هل أصابك من ضررْ؟

هنا يكمل الشاعر اللبناني الأبيات من نظمه وعلى نفس النسق:

فكأن هذا الصوت رغم حنوِّه غَضَبُ السماء على الغلام قد انهمرْ
ودرى فظيعَ خيانةٍ لم يأتها أحد سـواه منـذ تاريـخ البشـرْ
فارتدّ نحو القلب يغسلُه بما أجرتْ دموع العين من سَيْل العِبرْ
ويقول يا قلبُ انتقمْ مني ولا تغفر فإن جريمتي لا تُغتفرْ
وإذا غفرتَ فإنني أقضي انتحاراً مثلما بُـغـاث قبلي انتحرْ
واستلَّ خِنجرَه ليقتلَ نفسَه طعناً فيَبقى عبرةً لمن يعتبرْ
ناداه قلبُ الأم كُفَّ يداً ولا تَذبح فؤادي مرتين على الأثرْ

جاء التحذير من نقض عهد الله بشكل يتناسب مع حجم ذلك العهد والميثاق المتضمن للإحسان إلى الوالدين: ﴿**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ [الرعد:٢٥]. واللعنة إبعادٌ من رحمة الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة.

وتعكس الإساءة للوالدين في المفهوم القرآني صورة من صور الشّقاء والتجبّر،

وهذا ما نلاحظه في وصف القرآن لشخصية النبيّ يحيى(ع): ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً﴾ [مريم:١٤]، وعن السيد المسيح(ع): ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾ [مريم:٣٢]، ونلاحظ الارتباط بين البرّ بالوالدين وبين عدم الكون من الجبّارين، الذين يعيشون الغطرسة والتكبّر لا على مستوى الشعور فحسب، بل الفعل أيضاً، وهذا ما ينبغي التنبيه إليه خاصة الشباب في عنفوان قوّتهم إلى ضرورة الحذر من الاغترار بعناصر القوة بالمستوى الذي يطغون فيه حتى على الوالدين أو أحدهما، ومن صور الطغيان، العقوق بالتمرّد والاحتقار والاستهانة والتعامل القاسي والتجاهل والإهمال، فضلاً عن الإهانة والسبّ والضرب والعياذ بالله. وهذا من أهمّ أسباب العقوق، الذي بلحاظ الآيتين ليس إلا من صور العصيان والتمرّد على الله سبحانه، كما أنه من أسباب الشقاء الدنيوي والأخروي، لأن العاق لا بركة في حياته، بغضّ النظر عن المصير الأخروي. عن النبيّ: «**ثلاثة من الذنوب تُعجَّل عقوبتُها ولا تُؤَخّر إلى الآخرة: عقوق الوالدين والبغي على الناس وكفر الإحسان**»، وعنه: «**يُقال للعاقّ: اعمل ما شئت فإنّي لا أغفر لك**» وعن الهادي(ع): «**العقوق يُعقِب القلّة ويؤدي إلى الذلّة**».

أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِه وَأَلْهِمْنِي عِلْمَ مَا يَجبُ لَهُمَا عَلَيَّ إِلْهَاماً، ثُمَّ اسْتَعْمِلْنِي بِمَا تُلْهِمُنِي مِنْـهُ، أَللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَهَابُهُمَا هَيْبَةَ السُّلْطَانِ الْعَسُوفِ، وَأَبَرُّهُمَا بِرَّ الأُمِّ الرَّؤُوفِ، وَاجْعَلْ طَاعَتِي لِوَالِدَيَّ وَبِرِّيْ بِهِمَا أَقَرَّ لِعَيْنِي مِنْ رَقْدَةِ الْوَسْنَانِ، وَأَثْلَجَ لِصَدْرِي مِنْ شَرْبَةِ الظَّمْآنِ، حَتَّى أُوثِرَ عَلَى هَوَايَ هَوَاهُمَا وَأُقَدِّمَ عَلَى رِضَايَ رِضَاهُمَا، وَأَسْتَكْثِرَ بِرَّهُمَا بِي وَإِنْ قَلَّ، وَأَسْتَقِلَّ بِرِّي بِهِمَا وَإِنْ كَثُرَ. اللَّهُمَّ وَمَا مَسَّهُمَا مِنِّي مِنْ أَذىً أَوْ خَلَصَ إِلَيْهِمَا عَنِّي مِنْ مَكْرُوه أَوْ ضَاعَ قِبَلِي لَهُمَا مِنْ حَقٍّ فَاجْعَلْهُ حِطَّةً لِذُنُوبِهِمَا وَعُلُوّاً فِي دَرَجَاتِهِمَا وَزِيَادَةً فِي حَسَنَاتِهِمَا يَا مُبَدِّلَ السَّيِّئَاتِ بِأَضْعَافِهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ يا أرحم الراحمين.

شكوك وأوهام

كيف وُجد الله؟ مَن خلق الله؟ ما هيئته؟ أين هو الآن؟

أفكار وشكوك وتساؤلات عديدة ومتكرّرة تدور في أذهان كثير من الشباب حول الخالق جلّ وعلا، وأحياناً تلحّ بصورة قوية، وقد تتطوّر إلى أفكار غريبة تضغط على الشاب الذي يشعر بالتناقض بين إيمانه بالله الواحد سبحانه، وبين هذه الشكوك والتساؤلات والأوهام، وهذا الضغط يولِّد أحياناً حالة من الانهيار النفسي نتيجة توهّم ترتّب الكفر والخروج من الدين... ومن المؤسف أنّ بعضاً من أنصاف المتعلّمين يسرع بالإفتاء بتكفير من يتساءل حول هذه الموضوعات بحثاً عن جواب، أو سعياً للتخلّص من التشوّش الفكري والنفسي الذي يعيشه.

ولا بدّ من معالجة الموضوع من عدة نواحٍ:

الناحية الأولى: هل أنّ الشكّ في التوحيد أو النبوَّة أو اليوم الآخر يحوّل الإنسان من مسلم إلى كافر؟

بمراجعة النصوص المروية عن أهل البيت عليهم السلام نجدها على نحوين: الأول من قبيل صحيحة عبدالله بن سنان عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال «**مَن شكّ في الله وفي رسوله فهو كافر**».

والثاني من قبيل مارواه محمد بن مسلم قال «كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام جالساً عن يساره وزرارة عن يمينه، فدخل عليه أبو بصير فقال: يا أبا عبد الله ما تقول في مَنْ شكّ في الله؟ فقال: **كافر يا أبا محمد.** قال: فشكّ في رسول الله؟ فقال: **كافر.** قال: ثم التفت إلى زرارة فقال: **إنّما يكفر إذا جَحَدَ.**

والجمع بين النصوص من النحوين السالفين يمكن من خلاله اعتبار أن النصوص على النحو الأول مطلقة، والتي على النحو الثاني مقيّدة لها، والنتيجة أن مجرّد الشكّ لا يؤدّي إلى الكفر، بل الشكّ الذي يجحد من خلاله الإنسان ويجعله عارفاً بالحقّ معانداً له. ولذا قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام «**ولو أنّ العباد إذا جهلوا وقفوا ولم يجحدوا، لم يكفروا**».

ثم إن العقل يحكم بأن الإنسان له العذر في مرحلة الطلب والبحث عن العقائد الصحيحة، سيّما عندما تكثر الشبهات والطروحات البرّاقة، ويقبح عقلاً أن يعاقبه المولى الحكيم والعادل على شكوكه الجارية في طريق البحث والوصول إلى الحقيقة.

الناحية الثانية: هل التساؤلات والأوهام حول الخالق سبحانه من إفرازات هذا العصر؟

بين أيدينا عدّة نصوص يعود بعضها إلى عهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، تذكر لنا حالات مشابهة عاشها بعض أصحابه وبعض المؤمنين في فترات لاحقة، منها هذا النصّ الذي رواه الكليني (رحمه الله) في الأصول من الكافي باب الوسوسة وحديث النفس «عن علي بن مهزيار قال: كتب رجل إلى أبي جعفر (الإمام محمد الجواد) عليه السلام يشكو إليه لمماً يخطر على باله، فأجابه في بعض كلامه: **إنّ الله عزّ وجلّ إن شاء ثبّتك فلا يجعل لإبليس عليك طريقاً. قد شكى قوم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمماً يُعرض لهم لأن تهوي**

بهم الريح أو يُقطّعوا أحبّ إليهم من أن يتكلّموا به، فقال رسول الله: أتجدون ذلك؟ قالوا: نعم. فقال: والذي نفسي بيده إنّ ذلك لصريح الإيمان، فإذا وجدتموه فقولوا: آمنا بالله ورسوله ولا حول ولا قوة إلا بالله».

الناحية الثالثة: كيف نعالج المشكلة إن عانى منها البعض؟

الملاحظ في النصوص أنّ المشكلة تعالج بعدّة وسائل:

١ـ تهوين الأمر لتخفيف الضغط النفسي والتجرّد التدريجي من هذه المعاناة. عن محمد بن حمران قال «سألت أبا عبدالله (الصادق) عليه السلام عن الوسوسة وإن كثرت. فقال: **لا شيء فيها، تقول: لا إله إلا الله**».

٢ـ الحثّ على أذكار التوحيد أو النبوة لتركيز الحالة الإيمانية وبعث الثقة بالنفس، فعن جميل بن درّاج عن أبي عبدالله عليه السلام «قال: قلت له إنّه يقع في قلبي أمر عظيم. فقال: **قل: لا إله إلا الله**. قال جميل: وكلّما وقع في قلبي شيء قلت: لا إله إلا الله، فيذهب عنّي».

٣ـ تركيز بعض الرسائل الإيمانيّة القصيرة في الذّهن، نلاحظ هذا الخبر المرويّ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام «**جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله هلكت. فقال له: أتاك الخبيث، فقال لك: مَن خَلَقَك؟ فقلت: الله. فقال لك: الله مَنْ خلقه؟ فقال إي والذي بعثك بالحقّ لكان كذا. فقال رسول الله: ذاك والله محضُ الإيمان**».

قال ابن أبي عمير: فحدّثت بذلك عبد الرحمن بن الحجّاج فقال: حدثني أبي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنّما عنى بقوله: (**هذا والله محض الإيمان**) خوفه أن يكون قد هلك حيث عرض له ذلك في قلبه، أيّ إنّ مجرد هذا التخوّف واللجوء إلى النبيّ دليل على إيمان الشخص،

وأن تلك محض أوهام. وفي حديث آخر «والله ما نافقت، ولو نافقت ما أتيتني» وفي آخر «إنّ الشيطان أتاكم من قِبَل الأعمال فلم يقوَ عليكم، فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلكم».

❀❀❀

من روعة البيان القرآني أنّه يحمل في طياته إمكانية استيحاء المعاني من تعابيره بجانب دلالتها الحقيقية المباشرة المتحقّقة من ظاهر النص، ولعلّه هو المراد من باطن القـرآن وظاهـره كما في بعض الأحاديث، وهذا ما نجده في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٢٦ـ ٢٧].

ففي الحديث النبوي: «**يُخرِج الحيَّ من الميت ويُخرِج الميت من الحي. قال: المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن**» فمن الواضح أن ليس هذا هو المعنى الظاهر والأصلي للعبارة، بل هو معنى استيحائي باعتبار أنّ الله سمّى الإيمان حياة ونوراً والكفر ظُلمة، والكافر كالميت والأصمّ إذا ولى مدبراً، كما قال تعالى في بيان المقارنة بين حال المؤمن والكافر: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

ومن الضروري هنا أن نؤكد على أن للاستيحاء أسسه اللّغوية لئلّا يتحوّل إلى

وسيلة للتلاعب في القرآن ودلالاته، كما فعل البعض حيث اعتبر أنّ المراد من الجنابة إفشاء الأسرار!

من الكفر إلى الإيمان

هذا الخروج من الكفر إلى الإيمان قد يتمّ بعوامل مختلفة، فقد ينبهر إنسان بمعجزة فيؤمن: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ*فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ*فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ*وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ، قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:١١٧ـ١٢١]. وقد يؤمن نتيجة الانبهار بالقيم الأخلاقية في الإسلام كما في العديد من الأحداث التي جرت في العهد النبويّ وما بعد ذلك، كما قد يؤمن نتيجة الحاجة والإحساس بالضعف: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس:٢٢]. إلاّ أنّ أهم وأرقى صور الإيمان هو ذلك النابع عن قناعة عقلية متبلورة من عمق فهم الوجود والحياة والإيمان.

محمد رجا غارودي

في الثالث عشر من يونيو ٢٠١٢ توفي الفيلسوف الفرنسي المسلم روجيه غارودي عن عمر تجاوز الثامنة والتسعين، ومن يطّلع على مراحل حياته يجده مصداقاً من مصاديق قوله تعالى في المعنى الاستيحائي: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام:٩٥] فقد وُلد روجيه (محمد رجا لاحقاً) من أب ملحد وأم كاثوليكية، ولكنه اختار في بداية حياته الالتزام بالبروتستانتية، ومع ظهور الشيوعية بقوّة انضم إلى الحزب الشيوعي وهو في العشرين من عمره، ليغدو بمرور الوقت الفيلسوف الرسمي للحزب وأحد قادته.

ولكن عقله لم يهدأ، فتمرّد على الشيوعية في حزمة إشكالات طرحها ليبدأ رحلة البحث من جديد عن الإيمان، فالتزم الكاثوليكية، ولم يجد فيها مبتغاه، فانفتح على الإسلام وبدأ يقرأ ويؤلّف في هذا المجال حتى شرح الله صدرَه عام ١٩٨٢، معتبراً: «أنّ الإسلام يقدّم تصوّراً عقلانياً ومتكاملاً للكون والإنسان والحياة والله، كما أنّ تشريعات الإسلام تلائم طبيعة الإنسان والحياة ملاءمةً تامة، فضلاً عن انفتاح الإسلام على العقائد التي سبقته وانفتاحه على الثقافات الأخرى والعلم والفلسفة».

أهم القضايا التي شغلته

ما يهمّنا هنا بجوار وصوله إلى الحقيقة عن طريق العقل والتفكير والمقارنة، القضايا التي تبنّاها بعد إسلامه، وكيف استطاع الإسلام أن يفتح آفاقه بما يتواءم مع همومه، ويمكن تلخيصها في التالي:

١ـ مقارعة الصهيونية: ابتداء من إدانته لمجزرة صبرا وشاتيلا، مروراً بمؤلّفاته ككتاب: (الأساطير المؤسِّسة للسياسة اليهودية).

٢ـ سعى لتخليص العالم الغربي من عقدة المحرقة النازية، والتي تستخدمها الصهيونية كورقة ضغط في وجه كلّ من يعاديها تحت عنوان معاداة السامية. ومن هنا كتب غارودي عن المبالغات في شأن المحرقة، وكشف عن أدلّة تثبت وجود تعاون قد تمّ بين هتلر وبين قادة إسرائيليين، وغير ذلك من الفضائح التي لم يتحمّلها الصهاينة ولا الغرب، فحوكم وأُدين وحُورب إعلامياً بشكل واسع.

٣ـ انتقاد الغرب في توجهاته: «وهذا يقودنا نحن الغربيين إلى بناء علاقات ودية بالعالم الثالث بعيدة عن ثقافة التفوّق والعنصرية. وحتى تنجح خطّة العمل لا بدّ من تغيير نمط الحياة من خلال التبشير الأخلاقي النابع من الإيمان، الإيمان بالله أو الإيمان بالإنسان، وكذا تصحيح المفاهيم في الإنتاج والاقتصاد».

٤ـ تبنّي قضايا المظلومين في الشّرق والغرب، حتى عُرف بعنوان (فيلسوف الإنسان).

٥ـ نقد النتاج الثقافي للمسلمين بما لم يكن يراه متوائماً مع متطلّبات العصر، وبما يمكّن الإسلام من الوصول إلى العقل الغربي، وبالتالي أولى اهتماماً كبيراً لإعادة الإسلام إلى الحياة بصورة فاعلة، محتملاً أنّ: «السبيل الوحيد في إرجاع الإسلام الحيّ إلى واقعنا، هو نبذ التعصّب والتقليد الأعمى وفتح باب الاجتهاد، وإخراج الإسلام من دائرة القول إلى دائرة الفعل، ومن الجمودية إلى التجديد» معتبراً أنّ «كل نهضة للإسلام تبدأ بقراءة جديدة للقرآن».

إنّ سيرة هذا الفيلسوف الإسلامي الغربي في رحلته إلى الإيمان، وحَمْلِ همّ الإنسان، والدفاع عن القضايا العادلة يمثّل نموذجاً لكلّ شبابنا الحائر الباحث عن الحقيقة في خضمّ تناقضات الحياة، وصراع الحديث والقديم، واستقواء الباطل وأهلِه، وتقهقر الحقِّ وأنصارِه، وضياع القيم الإنسانية، واستغلال الدين، واتّساع دائرة النفاق، وانتشار الخرافة، وتراجع دور العقل، وتفشّي العصبيّات القوميّة والعرقيّة والدينيّة والمذهبيّة.. نموذج يدعوهم إلى قراءة الإسلام بوعي وتدبر وتجرّد عن كلّ المؤثّرات والضغوطات النفسية في رحلة إيمانيّة حكى فيها القرآن نموذجاً لرحلة العقل في كيفية البحث عن الحقيقة إذ قال: ﴿**كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ*فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ**﴾ [الأنعام:٧٥ـ٧٦] ليستمر في بيان مسارات هذه الرحلة حتى أعلن: ﴿**يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ*إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام:٧٨ ـ ٧٩] فكان إيمانه النابع من العقل بالمستوى الذي عندما حاجَّه قومُه: ﴿**قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ**﴾ [الأنعام:٨٠].

الموت وخطاب العقل والروح

عندما تحدّث القرآن عن الموت، فقد تحدّث عنه في بُعدَين، فهو تارة يتحدّث عنه من بُعد عَقَدَيّ (عقائدي)، وهذا البُعد بحدّ ذاته ينقسم إلى أقسام:

ـ ما يرتبط بالإيمان بقدرة الله سبحانه وصفاته: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢].

ـ ما يرتبط بالجانب التدبيري الخاص بالموت: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة:١١].

ـ ما يرتبط بالإيمان باليوم الآخر: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة:٨].

وهناك حديث قرآني عن الموت في بُعده التربوي: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك:٢]. ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ، وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠ ـ ١١].

الإمام علي يصف الموت

ولما كان من شأن القرآن الكريم أن يُجمل الحديث في الكثير من القضايا بما يحقّق الغرض من الآية النازلة، فقد قام أمير المؤمنين علي عليه السلام بتفصيل ما تم إجماله ببيان ممتزج بالعمق في المفهوم والحكمة في المعنى والبلاغة في التعبير.

ومن نماذج ذلك ما جاء في خطبة برقم (١٠٧) في نهج البلاغة: «سُبْحَانَكَ خَالِقاً وَمَعْبُوداً! بِحُسْنِ بَلاَئِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ، خَلَقْتَ دَاراً، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً: مَشْرَباً وَمَطْعَماً، وَأَزْوَاجاً وَخَدَماً، وَقُصُوراً، وَأَنْهَاراً، وَزُرُوعاً، وَثِمَاراً. ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْهَا، فَلاَ الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلاَ فِيمَا رَغَّبْتَ رَغِبُوا، وَلاَ إِلَى مَا شَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتَاقُوا. أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ قَدْ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا، وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا، وَلِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا، حَيْثُمَا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا، وَحَيْثُما أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا؛ لاَ يَنْزَجِرُ مِنَ اللهِ بِزَاجِرٍ، وَلاَ يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ، وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُوذِينَ عَلَى الْغِرَّةِ، حَيْثُ لاَ إِقَالَةَ وَلاَ رَجْعَةَ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الْآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ: اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ. ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ، وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ، عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمْرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ!

وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا، أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهَاتِهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا، تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ الْمَهْنَأُ لِغَيْرِهِ، وَالْعِبءُ عَلَى ظَهْرِهِ.

وَالْمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا، فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ

مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهَدُ فِيما كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمُرِهِ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ!

فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّى خَالَطَ لِسَانُهُ سَمْعَهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلاَ يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ: يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ، يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلاَ يَسْمَعُ رَجْعَ كَلاَمِهِمْ.

ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ الْتِيَاطاً بِهِ، فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ. لاَ يُسْعِدُ بَاكِياً، وَلاَ يُجِيبُ دَاعِياً. ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى مَخَطٍّ فِي الْأَرْضِ، فَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَى عَمَلِهِ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ».

الموت وحديث العقل

بمثل هذا التصوير الرائع يصف الإمام ما يجري على الإنسان عند الموت، ليحرّك به عقله، ليتّخذ القرار الحكيم قبل أن يفاجئه ملاحقُه، ففي أكثر من خطبة يصف الإمام الموتَ وكأنه مخلوق يلاحق الإنسان ينتظر الفرصة لينقضّ عليه كما ينقضّ الكاسر على فريسته، وحينها لا مجال للفرار. والحكيم من يتأهّب لتلك اللحظة. وفي وصيته للحسن: «**يا بنيّ! أكثِر من ذِكر الموت، وذكر ما تهجم عليه، وتُفضي بعد الموت إليه، حتّى يأتيك وقد أخذت منه حذرك، وشددت له أزرك، ولا يأتيك بغتة فيبهرك**».

إذاً، هو حديث العقلُ يطلقه أمير المؤمنين(ع) لكلّ ذي لبّ، يتحدّث به من خلال الواقع اليومي الذي يعيشه الإنسان، لا لكي يتجمّد الإنسان في حياته استسلاما للقدر المحتوم الذي قد يداهمه في أيّة لحظة، ليتحوّل إلى فرد عاطل لا عطاء له في هذه الحياة، وهو القائل عليه السلام: «**إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً**» فتعامل مع كل ما يرتبط بعمارة الأرض في هذه الحياة من منطلق الحياة الأبدية، لكي تمتلك القدرة

على هذه العمارة.. ولكي يكون هذا الإيمان العميق الواعي سبباً لتهذيب حركة الإنسان في الحياة، ولعمارة النشأة الأخرى التي ستتحقّق له فيها الأبدية الحقيقية.

الموت وخطاب الروح

وإذا كنّا نجد خطاب العقل حول الموت في نهج البلاغة، فإنّ صحيفة الإمام زين العابدين عليه السلام تأتي لتحرّك القلب، لتكتمل صورة التأثير عقلاً وقلباً، وعياً وشعوراً، بكلّ ما تتضمّنه تلك المناجاة من مفاهيم ترسم معالم العلاقة السليمة بين الإنسان وبين أجله المحتوم. فكان من دُعائه عند ذكر الموت: «**وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ صَالِحِ الأَعْمَالِ عَمَلاً نَسْتَبْطِئُ مَعَهُ الْمَصِيرَ إِلَيْكَ، وَنحْرِصُ لَهُ عَلَى وَشْكِ اللِّحَاقِ بِكَ حَتَّى يَكُونَ الْمَوْتُ مَأْنَسَنَا الَّذِي نَأْنَسُ بِهِ، وَمَأْلَفَنَا الَّذِي نَشْتَاقُ إِلَيْهِ، وَحَامَّتَنَا الَّتِي نُحِبُّ الدُّنُوَّ مِنْهَا. فَإِذَا أَوْرَدْتَهُ عَلَيْنَا، وَأَنْزَلْتَهُ بِنَا فَأَسْعِدْنَا بِهِ زَائِراً، وَآنِسْنَا بِهِ قَادِماً، وَلاَ تُشْقِنَا بِضِيافَتِهِ، وَلا تُخْزِنَا بِزِيارَتِهِ، وَاجْعَلْهُ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ مَغْفِرَتِكَ، وَمِفْتَاحاً مِنْ مَفَاتِيحِ رَحْمَتِكَ. أَمِتْنَا مُهْتَدِينَ غَيْرَ ضَالِّينَ طائِعِينَ غَيْرَ مُسْتَكْرِهِينَ تَائِبِينَ غَيْرَ عاصِينَ وَلا مُصِرِّينَ يَا ضَامِنَ جَزَاءِ الْمُحْسِنِينَ، وَمُسْتَصْلِحَ عَمَلِ الْمُفْسِدِينَ**».

إنّ الإمام لا يطلب التفاعل مع هذه الكلمات من خلال لحن القراءة، ليكون تأثراً شعورياً فارغاً لا يُصلح ما يُفسِده الإنسان إلا القليل، كما لا يريد أن نتفاعل معها تفاعل الوجدانيات المحبوسة في إطار القلب، والمتحوّلة إلى دمعات تنهمر ثم ينتهي كلّ شيء.. بل هي الكلمات التي تخاطب الوجدان، وتشتمل على معالم طريق التغيير إلى الأحسن، ليس فقط في العلاقة مع الله، بل مع عباد الله، وفي الآخرة قد يتجاوز الله عن معصية يرتكبها الإنسان في حقّ من حقوق الله، ولكنّه لن يتجاوز عن حقوق الناس إلا أن يتجاوزوا ويعفوا عنه.. فحسن العلاقة مع الناس هي جزء من الصورة المتكاملة للإنسان كما يحبّه الله: «**عامِلوا الناس معاملة من إذا مِتّم بكوا عليكم وإن غبتم حنُّوا اليكم**».

الإمامة الإبراهيميّة

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤].. من ضمن دلالات هذه الآية المباركة أنّ الله سبحانه وتعالى أراد لحركة الخليل إبراهيم عليه السلام ولقيادته أن تمتدّ في حياته جغرافياً واستيعاباً للناس، لتمثّل تتويجاً لكلّ النجاحات التي حقّقها في الابتلاءات الشديدة المختلفة، والتي كان يقف فيها ـ أحياناً ـ وحيداً يواجه من خلالها كلّ الباطل وكلّ الكفر، وكلّ المخاطر وردّات الفعل العنيفة والاضطرار إلى الهجرة من الديار، دون أن يصرفه ذلك عن الاستجابة لمسؤوليّاته تجاهها.

الامتداد في الزّمن

وأراد الله عزّ وجل لدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام أن تتجاوز حياته، لتمتدّ في الزمان أيضاً من خلال الأبوّة النسَبية لمن جاء من بعده من الأنبياء، وكذلك من خلال الأبوة الروحية للرسالات المتأخّرة عنه، والتي يبرز فيها أبو الأنبياء(ع) من خلال شخصه ورسالته بصورة واضحة جليّة، يشعر معها أتباع الرسالات اللّاحقة بوجود ذلك الارتباط الوثيق به وبرسالته حتى تنازع أتباعها عبر الزمان ـ بل وحتى

المشركون الذين انحرفوا عن ملّته ـ ادعاء الانتماء له ولرسالته: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧].

العهد في التوراة

ولربما أشارت التوراة الحاضرة إلى هذا في النص التالي: «وَلَمَّا كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ تِسْع وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: أَنَا اللهُ الْقَدِيرُ. سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلاً، فَأَجْعَلَ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَأُكَثِّرَكَ كَثِيراً جِدًّا». فَسَقَطَ أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ. وَتَكَلَّمَ اللهُ مَعَهُ قَائِلاً: «أَمَّا أَنَا فَهُوَ ذَا عَهْدِي مَعَكَ، وَتَكُونُ أَباً لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ، فَلاَ يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدُ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ، لأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ. وَأُثْمِرُكَ كَثِيرًا جِدًّا، وَأَجْعَلُكَ أُمَمًا، وَمُلُوكٌ مِنْكَ يَخْرُجُونَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ، عَهْدًا أَبَدِيًّا، لأَكُونَ إِلهًا لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ» سفر التكوين: الإصحاح١٧.

البيت الحرام

وكان من أهمّ سبل تحقيق هذا الامتداد بصوره المختلفة بناء البيت الحرام، وهو ما نلاحظه بوضوح في الآيات التالية لآية الإمامة الإبراهيمية: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ*وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ*وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ*رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٢٥ـ١٢٨].

وأعقب الله سبحانه بناء البيت وتهيئة المسجد الحرام بالدعوة إلى الحجّ إلى هـذا البـيت الحرام: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيـمَ مَكَـانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِيـنَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ*وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِـن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ*لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج:٢٦ـ٢٨].

توحيد ووحدة

وإذ استعملت الآية كلمة (منافع) دون تحديد لها، فإنّها قد تركت الباب مفتوحاً لاكتشافها ولاستيعابها لمصاديق أكبر عبر الزمان، إلا أن بعض ما روي من أحاديث في هذا الإطار قدَّم نماذج لها كما في الخبر التالي: عن هشام بن الحكم: «سألت أبا عبد الله عليه السلام فقلت له: ما العلّة التي من أجلها كلّف الله العباد الحجّ والطواف بالبيت؟ فذكر الإمام عدة أمور من بينها العنوانَين التاليَين: «**فجعل فيه الاجتماع من الشّرق والغرب ليتعارفوا.. ولتُعرَف آثار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتُعرَف أخباره**».

أي إنّ الحجّ مع ما يمثّله من حركة لتأصيل حقيقة توحيد الله في نفس الإنسان المسلم، فهو ـ أيضاً ـ ملتقى الموحّدين جميعاً في شرق الأرض وغربها، وقد أذابوا كلّ صور الفوارق فيما بينهم، فتوحّدوا في المكان وفي الحركة وفي الزي، ليحقّقوا التعارف والتواصل والتعاون وتبادل الخبرات والمعارف، ليتقاربوا ويتكاملوا فيما بينهم، لا ليؤصّلوا حالة الاختلاف والنزاع والشِّقاق المذهبي، ولا ليرسّخوا الفُرقة والعداء فيما بينهم.

مفارقة الواقع

إلا أن الواقع شيء، والأمنيات والغايات المرجوّة شيء آخر، وهو ما نشهده في كلّ عام من خلال ممارسات ـ وأحياناً فتاوى ـ تؤصّل للاختلاف والتنازع والفُرقة، ونتحمّل جميعاً مسؤوليتها، ومسؤولية معالجتها، كلٌّ بحسبه.. فعندما لا يجد الحاج قبولاً لتعددية المذاهب الإسلامية من قبل البعض، وبالتالي لا يجد الحرية المسؤولة في أداء شعائره وفق الفقه الذي يتبنّاه.. وعندما تكيل بعض الخطابات ـ أثناء الحجّ ـ لهذه الطائفة أو تلك بالضلال والخروج من الدين.. وعندما تُقدَّم فتاوى للحجاج ـ كمسألة الاختلاف في تحديد يوم الوقوف بعرفات ـ وكأنّ الحاجّ يريد أن يؤدّي منسكه في غرفة منعزلة عن بقية الحجاج، دون اعتبار لعناوين عديدة من شأنها أن تعزل أتباع هذه الطائفة عن بقيّة المسلمين، وتعطي عنهم انطباعاً سلبياً تمهِّد لتقبّل فرزهم خارج الدائرة الإسلامية الكبرى.. كلّ هذه وغيرها من شأنها أن تؤصِّل التنازع والفرقة بما يخالف الهدف الكبير للحجّ.

ولذا، فالكلّ مدعوّ للعودة إلى الروح التوحيدية للحج، وبالتالي إلى التوقّف عن كلّ التصرّفات التي من شأنها استفزاز الطرف الآخر بما يتعارض مع واحدة من أهمّ المنافع التي أراد الله للمسلمين تحقيقها من خلال هذه الحركة الإيمانية العظيمة.

❀❀❀

تكامل الولاء

في الكافي وأمالي الصدوق عن جابر بن يزيد الجعفي، قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**يا جابر، أيكتفي من ينتحل التشيع أن يقول بمحبّتنا أهل البيت؟ فوالله ما شيعتنا إلا من اتّقى الله وأطاعه، وما كانوا يُعرفون يا جابر إلا بالتواضع والتخشّع والأمانة والإنابة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبِرّ بالوالدين والتعهّد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكفّ الألسن عن الناس إلاّ من خير، وكانوا أمناءَ عشائرهم في الأشياء**». قال جابر: فقلت يا بن رسول الله، ما نعرف اليوم أحداً بهذه الأوصاف! فقال عليه السلام: **يا جابر، لا تذهبنّ بك المذاهب، أَحَسْبُ الرّجل أن يقول أُحبّ علياً وأتولّاه ثم لا يكون مع ذلك فعالاً. فلو قال إنّي أُحبّ رسول الله، فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خير من عليّ صلى الله عليهما وعلى آلهما وسلّم، ثم لا يتّبع سيرته ولا يعمل بسنّته، ما نفعه حبُّه شيئاً، فاتقوا واعملوا لما عند الله ليس بين الله وبين أحد قرابة. أحبُّ العباد إلى اللّه عزّ وجل اتقاهم وأعملهم بطاعته. يا جابر، فوالله ما يُتقرّب إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة، وما معنا براءة من النار، وما لنا على الله من حجّة. مَنْ كان لله مطيعاً فهو لنا وليّ، ومَنْ كان لله عاصياً فهو لنا عدو، وما تُنال ولايتنا إلا بالعمل والورع**».

الخطاب الديني

لعلّنا عملنا ـ من خلال خطابنا الديني ـ على زرع مفهوم غير متكامل مع ما في الحديث السابق وأحاديث أخرى مشابهة، بحيث يترسَّخ مضمون ذلك الخطاب في اللاّوعي الشيعي، وانعكس لا إرادياً في بعض الكلمات.

ومثالٌ على ذلك تكرار العبارة التالية على الألسن: «اللهم ارزقنا في الدنيا زيارتهم وفي الآخرة شفاعتهم».. عبارة من حيث المضمون لا خلاف على شرعيّتها، وأنّها تمثّل أمنية كلّ مؤمن محبّ للنبيّ وآله عليهم السلام، سواء فيما يخصّ الزيارة أو شفاعة الآخرة.. ولكنّها عبارة مبتورة قاصرة عمّا يفترض أن تكون عليه أمانينا في طبيعة العلاقة التي تربط المسلم الشيعي بالنبي وآله عليهم السلام.

إطار العلاقة

فهل يجب فعلاً أن تكون علاقتنا بهم قائمة على هذين العنوانين فقط؟ وهل خَلَق الله النبي وآله عليهم السلام كي يموتوا فنزورهم، ثم يحيون ليشفعوا لنا؟ وهل خلقنا الله سبحانه وتعالى بهدف البحث عن الشفاعة؟ هل هذا هو هدف الخِلْقَة؟ هل قدّم النبيّ(ص) وآله(ع) ما قدّموا من تضحيات فقط لنزورهم ولينالوا مقام الشفاعة؟

وبعبارة أخرى: هل من الصحيح أن نؤطّر طبيعة العلاقة التي تربطنا بهم في هذين العنوانين فقط، أم أنّ الله حمَّلهم ما حمّلهم من مسؤوليّات نهضوا بها واستقاموا في طريقها وضحّوا من أجلها كي يساهموا في تحقيق الغاية من الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]

مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الله غني عن عبادتنا، وأنّ العبادة محطّة يحتاج

إليها الإنسان كي يرتقي ويعود إلى أحسن تقويمٍ خلقه الله عليه في عقله وروحه وفطرته. ولا يخفى أنّ هذا التقويم يتحقّق بعدّة طرق من أهمّها الاقتداء والاتّباع: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١].. فما بالنا إذاً لا نذكر ذلك في ضمن دعائنا وانعكاس أمانينا لتطوير العلاقة بيننا وبين النبي(ص) وآله(ع)؟ لماذا لا يسعفنا وعيُنا ولا وعينا في ذكر ذلك كلّما سألنا الله سبحانه أن يقوّي العلاقة بيننا وبينهم؟.. المسألة هي: ماذا رسَّخنا في الوعي واللاّوعي الشيعي بخطابنا الديني؟

سيماء الشيعة

ولعلّ هذا هو الذي جعل أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**ما لي لا أرى عليكم سيماء الشيعة؟**» في استغراب منه للتمسّك أحياناً ببعض العناوين والمظاهر الخارجية دون السّماح للمضامين الحقيقية أن تأخذ مداها الكامل في تكوين الشخصيّة الموالية، أو الغفلة أحياناً عن الأطر الرئيسية التي تشكّل معالم الشخصية الشيعيّة كما يجب أن تكون.

إنّ أئمّتنا عليهم السلام في الحديث الذي صُدّرت به المقالة ـ وفي غيره مَنْ الأحاديث ـ ينبّهون إلى أنّه قبل تمنّي الزيارة وطلب شفاعة الآخرة، على من التزم ولايتهم والتشيّع لهم أن يسعى للاقتداء العملي بهم مع طَلَبِ التوفيق لاتّباعهم، فولايتهم والتشيّع لهم لا يُنال بالأمنيات، وإنّما بالعمل الصالح والورع والتقوى. ولذا قال الإمام الصادق عليه السلام لمن توهّم كفاية الإيمان والحب: «**ما أنصفتمونا أن كُلِّفنا بالعمل ووُضع عنكم**».. وعلينا أن نتذكّر أن تصحيح المفاهيم يُعدّ خطوة في طريق إصلاح الذّات.

❀❀❀

لا يحبّك إلا مؤمن

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**لو ضربتُ خيشوم المؤمنِ بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني، ولو صببت الدنيا بجمّاتها** ـ والجمات جمع جمّة وهو مكان جمع الماء ـ **على المنافق على أن يحبّني ما أحبّني، وذلك أنه قُضي على لسان النبي الأميّ صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: يا علي، لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق**».

بين المنقبة والدلالة

عادة ما نتعامل مع هذه الكلمة من خلال بُعدها المنقبي، ونغفل عن محاولة فهم ما يريد علي عليه السلام قولَه.. وكذلك دلالة كلمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي استشهد بها الإمام.. فكيف نفهم ارتباط الإيمان بحبّ عليّ(ع) وارتباط النفاق ببغضه بهذه الصورة من الارتباط غير القابل للانفكاك، لاسيّما بملاحظة ثلاثة أمور:

١ـ إنّ المشاعر تكون ـ أحياناً ـ موجّهة توجيهاً خاطئاً نتيجة التأثّر بالعلاقات الإنسانية أو للتربية الخاطئة أو لغير ذلك، ونموذجه الخبر المرويّ في كتاب مجمع الزوائد للهيثمي وفي كتب أخرى كصحيح البخاري والمستدرك على

الصحيحين وسنن الترمذي واللّفظ للأول عن الصحابي بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال: «أبغضتُ عليّاً بغضاً لم أبغضه أحداً قط! قال: وأحببت رجلاً من قريش لم أحبّه إلا على بغضه علياً رضي الله عنه، قال: فبُعث ذلك الرجل على جيش فصحبتُه، ما صحبتُه إلا ببغضه علياً رضي الله عنه. قال: فأصبنا سبايا، فكَتَب ـ أي هذا القائد العسكري ـ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ابعث إلينا مَن يُخمّسه. قال: فبعث علياً رضي الله عنه.. ووقع اختلاف بين ذلك القائد وبين الإمام علي حين اختار الخمس من الغنيمة ـ قال: فكتب الرجل إلى نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت: ابعثني مصدِّقاً. قال: فجعلت أقرأ الكتاب وأقول: صدَق! قال: فأمسك يدي والكتاب، وقال: **أتبغض علياً؟!** قال: قلت نعم. قال: **فلا تبغضه: وإن كنت تحبُّه فازدد له حبّاً، فوالذي نفس محمد بيده لنصيب آل علي في الخمس أفضل من وصيفة**». وفي رواية الهيثمي الأخرى: «فرأيت الغضب في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: يا رسول الله هذا مكان العائذ، بعثتني مع رجل وأمرتني أن أطيعه، ففعلت ما أرسلت به. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **لا تقَع في عليّ، فإنّه مني وأنا منه، وهو وليُّكم بعدي**». قال بريدة بعد ذلك: «فما كان أحد من الناس بعد قول رسول الله(ص) أحبَّ إليّ من عليّ».

تبدّل الموقف

فبريدة لم يكن منافقاً من الأساس، بل كانت أجواء العلاقات التي تربطه بذلك القائد العسكري أو سواه هي مصدر التأثير السلبيّ في مشاعره تجاه عليّ عليه السلام، ولذا فإنّه بمجرّد أن تلقّى تحذير النبيّ وتنبيهه، استجاب فغدا عليٌّ(ع) أحبَّ الناس إلى قلبه. ولذا لا يمكن أن نعتبر بريدة من المنافقين.. وكذلك بالنسبة إلى مَن لم يعرف حقيقة مَن هو عليّ(ع)، أو كان يعيش الغفلة بسببٍ تأثير ما.

٢ـ أن الحبّ والبغض مسألة تتّصل بالجانب الشعوري، والقلب يتفاعل في مسألة الحب والبغض دونما ارتباط بالمعتقد، فربما ينبض قلبك بحبّ شخص يختلف معك، وربّما ينبض قلبك ببغض مَن يتّفق معك في المبدأ والمنهج.

٣ـ أن أمير المؤمنين(ع) يمتلك كثيراً من الصفات الإنسانية التي يمكن ـ نظرياً ـ للمنافق أن يحبّه من خلالها، فالجود صفة إنسانية اتصف بها علي عليه السلام، وقد يكون المنافق جواداً ومحبّاً للجود، فكيف نفرض أنّه لن يحبّ عليّاً وهو يرى الجود يتجسّد في سلوكيّاته؟

حبٌّ ووعي

والذي يبدو أن المعيار المقدَّم في النصّ السّابق لا يرتبط بالمشاعر السطحية الساذجة التي لا تبتني على أساس، وتكون قابلة للتبدّل في أية لحظة، بتأثيرٍ من هنا أو هناك، بل المشاعر العميقة الراسخة التي تتشكّل من خلال العقل.

فمن يدرك حقيقة الإيمان من جهة، ومن يطّلع على سيرة عليّ عليه السلام وشخصيّته في إيمانه وتقواه وعلمه وجهاده وحكمته من جهة أخرى، فإنه لا يملك إلا أن يحبّ عليّاً عليه السّلام، لأنّ علياً كان إيماناً كلُّه، ولم يكن في شخصيّته مكان لأيّ شيء ذاتي، وهو الذي باع كلَّه لله سبحانه، وقد قال تعالى عنه: ﴿**ومِنَ النّاس من يشْرِي نفسهُ ابتِغاء مرضاةِ الله والله رؤوفٌ بالعباد**﴾ [البقرة:٢٠٧]، فالمؤمن الذي يعيش في نفسه عمق الإيمان لا بـدّ أن يعيش الحبّ والولاء لكلّ من يجسّد الإيمان، وعليّ عليه السّلام كان التجسيد الحيّ والعميق للإيمان كله.

أمّا المنافق الذي اختزن الكفر في قلبه، وكان إظهاره للإيمان بلسانه وسيلة من وسائل تغطية الخطط التي يخطّطها ليهدم الإيمان في العقيدة والشّريعة والحياة، فكيف يمكن أن يحبّ عليّاً الذي يقف في قلب السّاحة المواجِهة؟!

حبٌّ ومسؤولية

وهكذا علينا أن نحبّ عليّاً حبّاً واعياً، حبّاً قائماً على أساس معرفة حقيقة الإيمان من جهة، ومعرفة حقيقة عليّ(ع) من جهة أخرى، ليكون حبُّنا له حبّاً راسخاً عميقاً قوياً، ينطلق في منعطفات حياتنا كلِّها.. إنّ حبّ عليّ(ع) يعني التزام التقوى.. إنّ حبّ عليّ(ع) يعني إقامة العدل.. إنّ حبّ عليّ(ع) يعني طلب العلم.. إنّ حبّ عليّ(ع) يعني نصرة الحقّ.. إنّ حبّ عليّ(ع) يعني الأمر بالمعروف.. إنّ حبّ عليّ(ع) يعني مقارعة المنكر.. إنّ حبّ عليّ(ع) يعني الاستقامة في الإسلام.. إنّ حبَّ عليّ(ع) مسؤوليةٌ كبيرة لأنَّ صبغتَها صبغةُ الإيمان.. ﴿**صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ**﴾ [البقرة:١٣٨].

❋❋❋

يوم الفرقان

استعمل القرآن الكريم كلمة (الفرقان) بهذه الصيغة عدّة مرات، تارة بخصوص القرآن الكريم وذلك قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، وتارة بخصوص التوراة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء:٤٨]، كما عبّر عن معركة بدر الكبرى بهذا العنوان حيث قال سبحانه: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال:٤١] وهي ليست أسماء متكرّرة لوجودات مختلفة، بل صفة تشترك بها هذه الموصوفات.

تعريف الفرقان

فالفرقان هو الحدّ الفاصل بين شيء وشيء.. والقرآن فاصل بين الحقّ والباطل في العقائد والمعارف وبين وظيفة العبد وما ليس بوظيفة له.. وهكذا هي التوراة التي أُنزلت على موسى عليه السّلام.. كما أنّ معركة بدر كانت الفاصل بين الحقّ والباطل، إذ كانت أول مواجهة قتالية كبرى بين التوحيد والشِّرك في تاريخ

الإسلام، ومن خلال النصر الذي تحقّق للمسلمين امتاز الناس إلى معسكرَين وجبهتين.

معركة بدر

صحيح أنّ الذين وقفوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في بدر ثلاثمئة أو يزيدون، وأنّ الذين وقفوا إلى جانب قريش لقتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا ألفاً أو يزيدون قليلاً، إلاّ أنّ هذه المواجهة كانت أعمق وأوسع من ظاهرها البسيط في العدد.

فقد كان يقف من وراء المشركين من قريش في بدر جبهة عريضة من الشِّرك في الجزيرة وخارجها.. وتصاعُد الأحداث بعد هذا اليوم أثبت هذه الحقيقة.. وفي المقابل كانت تقف الجبهة الحديثة التكوّن التي ترفع لواء التوحيد والتي لم يتسنَّ لها أن تتحالف إلا مع بعض القبائل هنا وهناك. فيوم بدر إذن فرَّق الناس إلى شطرَين متمايزين في الولاء، من خلالهما تلخَّصت صورة لصراع بقاء بين عقيدتَين سيُكتَب لعقيدة التوحيد من خلالها الامتداد إلى أن يأذن الله بنهاية الأرض.

الفرقان الثاني

يوم الفرقان الثاني في تاريخ الإسلام هو يوم عاشوراء، في صورة قريبة من معركة بدر حيث المشهد الإجمالي، فقد كان يقف الحسين عليه السلام مع ثلّة صغيرة من أهل بيته وأصحابه، وفي الجانب الآخر، يقف عمر بن سعد مع جيش واسع، ومن ورائه ابن زياد، ومن ورائه يزيد وسلطانه وملكه الواسع وأمواله الكثيرة وإمكاناته، وكلّ الموالين له والمستفيدين منه. وهو يوم فرقان لأنّه يوم

أوجد الحدّ الفاصل بين الحقّ والباطل، وشطر المسلمين إلى شطرين متمايزين في الولاء والأخلاق والفكر والخطّ والعقيدة، ولأنّه لم يكن هناك التباس في أمر المعركة التي حدثت على أرض الطفّ، ولم يعد أحدٌ من المسلمين يومئذ يشكّ في أن الحسين(ع) يدعو إلى الله ورسوله وإلى الاستقامة على صراط الله المستقيم، وبالتالي فهو على هدى.. وأن يزيداً قد تجاوز حدود الله، وجاهر بالفسق والفجور، وهو يجلس مجلس رسول الله(ص)، وبالتالي فهو على ضلالة.. فمن وقف مع الحسين(ع) وقف عن بيّنة، ومن وقف مع يزيد وقف عن بيّنة. وقليل من مشاهد الصراع بين الحقّ والباطل يمتلك هذا الوضوح الذي تمتلكه واقعة الطف.

الخطابات الحاسمة

وقد كانت لخطابات الحسين عليه السلام الدور في تجلية الصورة بهذا الشكل، فقد وقف يوم عاشوراء بين الصّفَّين وقال مخاطباً جيش ابن زياد: «**أمّا بعد، فانسبوني فانظروا مَن أنا، ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها فانظروا هل يصلح لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟! ألستُ ابنَ بنتِ نبيِّكم وابنَ وصيّه وابنَ عمّه وأوّلَ المؤمنين المصدّق لرسول الله صلى الله عليه وآله بما جاء به من عند ربّه؟! أوَليس حمزةُ سيّدُ الشهداء عمّي؟ أو ليس جعفرٌ الطيّار في الجنّة بجناحين عمّي؟! أولم يبلغكم ما قال رسول الله صلّي الله عليه وآله لي ولأخي: هَذَانِ سَيِّدَا شَبَاب أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ فإن صدّقتموني بما أقول ـ وهو الحقّ ـ واللهِ ماتعمّدتُ كذباً منذ علمتُ أنَّ اللَه يمقت عليه أهلَه، وإنْ كذّبتموني فإنّ فيكم من إنْ سألتُموه عن ذلك أخبركم. سَلوا جابر بن عبد الله الأنصاريّ وأبا سعيد الخدريّ وسهل بن سعد الساعديّ وزيد بن أرقم وأنس بن مالك، يخبروكم أنّهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي. أما في هذا حاجزٌ لكم عن سفك دمي؟!**».

ثم قال عليه السلام: «لاَ وَاللَهِ لاَ أُعْطِيكُمْ بِيَدِي إِعْطَاءَ الذَّلِيلِ؛ وَلاَ أُقِرُّ لَكُمْ إِقْرَارَ الْعَبِيدِ. يَا عِبَادَ اللَهِ! إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ؛ وَأَعُوذُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِ مُتَكَبِرٍ لاَيُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ. تَبّاً لَكُمْ أَيَّتُهَا الْجَمَاعَةُ وَتَرَحاً. أَحِينَ اسْتَصْرَخْتُمُونَا وَالِهِينَ، فَأَصْرَخْنَاكُمْ مُوجِفِينَ؛ سَلَلْتُمْ عَلَيْنَا سَيْفاً لَنَا فِي أَيْمَانِكُمْ؟ وَحَشَشْتُمْ عَلَيْنَا نَاراً اقْتَدَحْنَاهَا عَلَى عَدُوِّنَا وَعَدُوِّكُمْ؟! فَأَصْبَحْتُمْ أَلَباً لأَعْدَائِكُمْ عَلَى أَوْلِيَائِكُمْ بِغَيْرِ عَدْلٍ أَفْشَوْهُ فِيكُمْ، وَلاَ أَمَلٍ أَصْبَحَ لَكُمْ فِيهِمْ؟!».

تجلّي الولاءَين

هذا الفرقان تجلّى في الجوّ العام الذي انطبع به كلٌّ من المعسكرين في تصرّفاته، وفق ما يفرضه الانتماء لمحور الولاية الإلهية، والانتماء للطاغوت.. فمعسكر لا يهتمّ إلا بنيل رضا الله والطاعة له وللإمام، ومعسكر لا يبالي بما يرتكب من جرائم وحشيّة تندى لها البشرية، في مقابل أن ينال شيئاً من حطام الدنيا.

ففي ليلة العاشر يوجّه الحسين عليه السلام أخاه العباس رضوان الله عليه ليطلب من القوم تأجيل القتال ليوم: «**ارجع إليهم فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى الغدوة وتدفعهم عنّا العشية، لعلّنا نصلّي لربّنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أنّي أحبّ الصلاة له وتلاوة كتابه والدعاء والاستغفار**».

وفي كتاب اللّهوف للسيد ابن طاوس: «وَبات الحسينُ عليه السلام وأصحابُه ـ ليلةَ عاشوراء ـ وَلهم دويٌّ كَدويِّ النحلِ، مَا بَينَ راكع وساجد وقائم وقاعد، فَعبرَ عليهم مِنْ عسكرِ عُمر بنِ سَعد اثنانِ وَثلاثونَ رَجلاً، وَكذا كانت سجيّة الحسينِ عليه السلام في كَثرةِ صَلاتِه وَكمالِ صِفاته».

وفي المقابل يتبجّح الأخنس بن مرثد الخضرمي في رضّهِ للأجساد الطاهرة

بعد استشهادهم، ففي اللّهوف: «ثم نادى عمر بن سعد في أصحابه: مَن ينتدب للحسين عليه السلام فيواطئ الخيل ظهره وصدره؟ فانتدب منهم عشرة وهم.. فداسوا الحسين عليه السلام بحوافر خيلهم حتى رضّوا صدره وظهره. قال الراوي: وجاء هؤلاء العشرة حتى وقفوا على ابن زياد فقال أسيد بن مالك أحد العشرة عليهم لعائن الله:

نحن رضضنا الصّدر بعد الظهر بكلّ يعبوب شديد الأسر

فقال ابن زياد: من أنتم؟ قالوا: نحن الذين وطئنا بخيولنا ظهر الحسين حتى طحنّا حناجر صدرِه. قال: فأمر لهم بجائزة يسيرة. قال أبو عمر الزاهد: فنظرنا إلى هؤلاء العشرة فوجدناهم جميعاً أولاد زناء».

وعن فاطمة بنت الحسين عليه السلام قالت: «دخلت العامّة علينا الفسطاط وأنا جارية صغيرة وفي رجلي خلخالان من ذهب فجعل رجل يفضّ الخلخالين من رجلي وهو يبكي فقلت: ما يبكيك يا عدو الله؟ فقال: كيف لا أبكي وأنا أسلب ابنة رسول الله؟! فقلت: لا تسلبني، قال: أخاف أن يجيء غيري فيأخذه. قالت: وانتهبوا ما في الأبنية حتى كانوا ينزعون الملاحف عن ظهورنا».

مع الحقّ دائماً

إن علاقتنا بعاشوراء الحسين عليه السلام لا تنتهي عند حدّ ذرف الدموع واسترجاع التاريخ، بل تنطلق لتكون فرقاناً لمسيرتنا في الحياة، فمنها نتعلّم أنّنا إذا كنّا مع الحق فإنّنا نسير في الخطّ الذي يرتضيه الحسين(ع)، وإن كنّا مع الباطل، الباطل السياسي أو الباطل الفكري أو الباطل السلوكي فإنّنا نسير في الخطّ المعادي للحسين(ع).. ومنها نتعلّم أن لا نتنازل عن مبادئنا للحصول على مكسب سياسي أو موقع متقدّم.. اجتماعياً كان أو انتخابياً أو غير ذلك..

فالمبادئ هي التي ترسم معالِم وحدود الخطّ الذي نسير عليه، فإما أن يكون صراطاً مستقيماً كصراط الحسين(ع)، وإما أن تكون سُبلاً فتفرق بنا عن سبيل الله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].



الشّفاعة في القرآن

الشّفاعة في المعنى الاصطلاحي العَقَديّ عند المسلمين مرتبطة بكرامة الله لبعض أوليائه في ما يريد أن يُظهره من فضلهم في الآخرة، فيُشفِّعهم في من يريد المغفرة له أو رفع درجته عنده.

وقد وردت كلمة (شفع) باشتقاقاتها اللّغوية ستٌّ وعشرون مرّة في القرآن الكريم، وباستعراضها نجد أنّ ما له علاقة بالمعنى الاصطلاحي يشمل أربعاً وعشرين آية، بينما قوله تعالى: ﴿**مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا**﴾ [النساء:٨٥]، فقد استُعلمت الكلمة هنا في المعنى اللُّغوي، ولها ارتباط بالوساطات التي كان يعرضها بعض المسلمين لبعض المنافقين أو المشركين في العهد النبوي، وهكذا بالنسبة إلى قوله تعالى: ﴿**وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ**﴾ [الفجر:٣] والتي أريد بها نوع من الصلاة، أو يوم من أيام السنة، أو غير ذلك مما لا علاقة له بالمعنى الاصطلاحي الذي نبحث فيه.

نفي الشفاعة الوهمية

ومن يتتبّع تلك الآيات ويستقرأها يلاحظ أنّها لا تتحدّث عن الشفاعة بقصد إثبات وجودها، بل تتحدث عنها بشكل سلبي كما يلي:

١ـ نفي الشفاعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

٢ـ نفي الشّفاعة عن الشفعاء الوهميّين الذين كان المشركون يدّعون لهم تلك الكرامة: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:٩٤].

٣ـ بيان عدم تأثير الشفاعة: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:١٢٣].

٤ـ لا شفاعة إلا بإذن الله ورضاه: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥]. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨].

إثبات الشفاعة بشروطها

وبالطبع فإنّ ما سبق لا يعني نفي الشفاعة في الآخرة بشكل مطلق، إذ أثبتت الآيات نحواً من الشفاعة ضمن قانون معيّن، ولكنَّ اهتمام الآيات انصبّ على معارضة فكرة الشّفاعة بالصورة التي كانت مطروحة من قِبَل المشركين الذين كانوا يعتقدون أنّ أصنامهم تملك ذلك الامتياز، وأنّهم يتقرّبون إليها بالعبادة والطاعة وتقديم القرابين لكي تكون لهم الحظوة عندها في تحقيق أمانيهم كلّها. والمشركون وإن لم يؤمنوا بالآخرة، إلا أنهم كانوا يواجهون النبيّ(ص) بدعوى أنّه لو افتُرض وقوعها فإنّ تلك الأصنام ستشفع لهم وتخلّصهم من عذاباتها.

ومن جهة أخرى فإنّ القرآن الكريم لم يحدّد أشخاص الشفعاء في الآخرة، بل ذكر منهم الملائكة، كما ذكر بعض صفات الشفعاء.

شفاعة بعد الإذن

ومن مجمل الآيات القرآنية التي تحدّثت عن الشفاعة، فإنّنا نجد التأكيد على سبق الإذن الإلهي والرضا الإلهي لأية شفاعة، وهذا يعني أنّ شفاعة الشافعين لا تتعارض مع الحكم الإلهي على عباده، بحيث يريد الله إنزال العقوبة بهم، فيتدخّل الشفعاء ليغيّروا الإرادة الإلهية، ويحوّلوا الغضب الإلهي إلى رضا، بل إنّ الله سبحانه يحكم ـ وَفْقَ رحمته ـ باستحقاق فئات من الناس الشّفاعة، وحينئذ يشفع الشّفعاء فيهم وَفْقَ الإذن الإلهيّ المسبق لهم بذلك، ووفق معرفة الشّفعاء بقانون الشّفاعة ومعاييرها وشروطها التي وضعها الله سبحانه، وذلك تكريماً للشفعاء من جهة، وتحسيناً لأوضاع تلك الفئات، برفع درجاتهم في الجنة، أو في التجاوز الإلهيّ عن بعض ما ارتكبوه من معاصٍ، من جهة أخرى.

مبالغة ومخالفة

وقد عمل الخطاب الديني الإسلامي في بعض مواقعه على تقديم صورة مشوّشة أو قاصرة حول الشّفاعة، أدّت إلى تصوّرها بالشكل السّابق، كما أدّت إلى تقديم الشّفاعة على العمل من حيث المرتبة والأهمية، على الرغم من كلّ التركيز القرآنيّ على الإيمان والعمل كأساسَيْن للنجاة في الآخرة، في الوقت الذي غلبت فيه الصفة السلبية على الحديث عن الشفاعة.

ونتيجة تلك الصورة المعكوسة جاءت المبالغة عند البعض في الركون إلى الشفاعة في الآخرة دون الاعتناء بالقانون الإلهي الذي ينظّم العلاقة بين الله والشفيع

والمشفَّع فيه، وهو ما يخالف صريح الآيات السّابقة، وصريح الأحاديث الواردة عن النبي وآله في هذا الخصوص من قبيل ما جاء في خطبة النبي صلى الله عليه وآله الأخيرة حيث قال: «**أما إنّه ليس بين الله وبين أحد من عباده شيء يعطيه به خيراً أو يدفع به عنه شراً إلا العمل، أمّا إنّه لا يُنجي إلاّ عمل مع رحمة، ولو عصيتُ لهويتُ**». فالله هو الذي جعل لنبيّه(ص) الشفاعة للمذنبين، ولكن النبيّ(ص) يريد أن يقول للناس: انطلقوا مع العمل وانتظروا رحمة الله وشفاعته ولا تتجرّأوا على ترك العمل والابتعاد عن الخط المستقيم لأنّكم تقولون سيشفع النبيّ لنا.

وكذلك فيما رواه أبو بصير قال: «دخلت على أم حميد أعزّيها بأبي عبدالله (الإمام جعفر الصادق عليه السلام وهي زوجته) فبكت وبكيت لبكائها، ثم قالت: يا أبا محمد لو رأيت أبا عبدالله عليه السلام عند الموت لرأيت عجباً، فتح عينيه ثمّ قال: **اجمعوا لي كلّ مَنْ بيني وبينه قرابة**، قالت: فلم نترك أحداً إلا جمعناه، قالت: فنظر إليهم ثمّ قال: **إنّ شفاعتنا لا تنال مستخفّاً بالصلاة**». وقد أدّت القراءة الخاطئة لحقيقة الشفاعة أيضاً إلى دفع البعض للسعي نحو تطوير علاقة خاصة بالشفعاء والتقرّب إليهم بأنحاء القربات، لا بدافع الاقتداء والاهتداء، بل أملاً في نيل شفاعتهم، ممّا أوجد بَوْناً شاسعاً بين السلوك العام لأولئك الناس وبين سيرة الشّفعاء الذين يمثّلون القمّة في الإيمان والعمل الصالح والخُلُق القويم.

نتائج مستخلصة

بمطالعة الآيات القرآنية التي تحدّثت عن الشفاعة يمكن استخلاص النتائج التالية:

١ـ أكّد القرآن الكريم أصل الشفاعة في الآخرة، وذكر الملائكة كشفعاء، كما ذكر بعض صفات الشفعاء.

٢ـ الحديث القرآني عن الشفاعة في مجمله حديث سلبي وذلك لمواجهة معتقدات المشركين.

٣ـ شفاعة الشافعين لا تمثّل معارضة للحكم الإلهي، ولا تغييراً لإرادته في إنزال العقوبة بالعاصين.

٤ـ من الخطأ المبالغة في الركون إلى الشفاعة دون الاعتناء بالقانون الإلهي الذي ينظّم العلاقة بين الله والشفيع والمشفّع فيه.



انتحار أمينة!

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَآءَ كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [النساء:١٩].

في الوقت الذي تعالج فيه الآية مشكلة عهدتها المجتمعات الجاهلية، وعايشها المجتمع الإسلامي المعاصر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتنطلق من استضعاف الرجل للمرأة ـ بما في ذلك الزوجة ـ من خلال قوّته الجسدية أو تفوّقه المعنويّ كزوج أو أب أو أخ، وذلك بالضغط عليها للاستيلاء على نصيبها من الإرث، أو لدفعها للتنازل عن مستحقّات مهرها من المؤخّر أو سواه.. في هذا الوقت فإنّ الآية تقرّر أن هذا التصرّف يعتبر أكلاً للمال الحرام، وممارسة للظلم، وخروجاً على الإطار المفترض في العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة والمتمثّل في قوله ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

أطر العلاقة

وبالتالي فالتشريع والقيم الأخلاقية أيضاً يحدّدان للرجل المؤمن أطر العلاقة الإنسانيّة الإسلاميّة التي تربطه بالمرأة كزوجة أو ابنة أو أخت أو غير ذلك، على أنْ

لا يكون ضعف المرأة أساساً لحرمانها، ومبرِّراً لاضطهادها... هذا الرادع الداخلي عنصر أساسي ومقدَّم في الرؤية الإسلاميّة لتحقيق الأمن الاجتماعي، لأنّه هو القوّة الحقيقية ضمن وسائل الردع المتنوعة كتشريع القوانين والعقوبات وما إلى ذلك.

استثناء

نعم تستثني الآية حالةً واحدةً وهي فيما لو ارتكبت الزوجة الزّنا، ففي مثل هذه الحالة، يمكن للرجل ممارسة بعض ألوان الضغط لتفتدي ذلك بمالها من المهر كُلاًّ أو بعضاً، كعقوبةٍ لها على هذا الانحراف من جهة، أو كتعويضٍ للرجل عمّا أنفق عليها فيما سبق، أو كتعويض نفسيّ واعتباريّ نتيجة إساءتها إلى مشاعر الكرامة والشرف عنده.

شرّ وخير

على العموم رسمت الآية معالم المنهج العام لطبيعة العلاقة بين الاثنين وهي (المعاشرة بالمعروف) التي تتمثّل في احترام المرأة في مشاعرها وعواطفها وشخصيّتها المستقلّة كإنسانة محترمة في إرادتها وتفكيرها.. ثم تلتفت الآية إلى مسألة أخرى في نفس الإطار: ﴿**فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً**﴾ [النساء:١٩] فقد تكون تلك المشاعر السلبية أمراً طارئاً نتيجة موقف أو حالة انفعالية تحجب عن الرؤية كلّ الإيجابيات الأخرى التي يعرفها الإنسان أو ستكشفها الأيام، والمتمثّلة في شخص الطرف الآخر، أو فيما يتعلّق بتربية الأبناء الذين هم بحاجة إلى رعاية الأبوين معاً لتكون التربية متكاملة.. فإذا غلّب الانفعال فسيخيّل له أن الخير شرٌّ والشرّ خيرٌ، وتغيب الحكمة ويقترب من التصرّف الخاطئ.. ولهذا يقول الله للرجل: كن موضوعياً وأنت تحكم على الأمور والأشخاص، وليكن العدل منهجك في ذلك كلّه.

العنف الذكوريّ

والآية في معرض معالجتها لهذه المشكلة إنّما تتعرّض أيضاً لنموذج من ظاهرة العنف الذكوري ضدّ المرأة والتي أصبحت ـ الظاهرة ـ مشكلة عالمية دفعت الجمعية العامة للأمم المتّحدة كي تعلن يوم ٢٥ ت٢ (نوفمبر) من كلّ عام يوماً دولياً للقضاء عليها. وقد عرَّفت الجمعية العامة للأمم المتّحدة العنف ضدّ المرأة بأنّه: «أي اعتداء ضدّ المرأة مبني على أساس الجنس، والذي يتسبّب بإحداث إيذاء أو ألم جسدي، أو جنسي، أو نفسي للمرأة، ويشمل أيضاً التهديد بهذا الاعتداء أو الضغط أو الحرمان التعسّفي للحريات، سواء حدث في إطار الحياة العامة أو الخاصة».

صورة مصغّرة

ولتقريب صورة حجم المشكلة نرجع إلى الصورة المصغّرة التي نشرتها منظمة العفو الدولية عام ٢٠٠٤، إذ لو اعتبرنا أنّ المجتمع البشري المعاصر تلخص في قرية عالمية تضم ١٠٠٠ نسمة، وأنّ «٥٠٠ منهم من النساء، فإنه يفترض أولاً أن يكون عددهن ٥١٠، لكن ١٠ منهن لم يولدن قط بسبب الإجهاض الانتقائي القائم على الجنس أو لأنّهن توفّين في الطفولة بسبب الإهمال»، «١٤٥ من النساء يعشن على أقل من دولار واحد في اليوم، ١٦٧ من النساء سيتعرّضن للضرب أو للعنف بطريقة أخرى خلال حياتهن»، «١٠٠ من النساء سيقعن ضحايا الاغتصاب أو محاولة الاغتصاب في حياتهن، ١٠٥ من النساء أميّات».

العنف الذكوري والطلاق

جاء في دراسة لمجلس الأمّة الكويتي ٢٠١٠ أنّ الإيذاء الجسدي والعاطفي يأتي من حيث المرتبة كثاني أهم الأسباب المؤدّية إلى الطلاق في الكويت

تحت بند «الأسباب السلوكية المتعلّقة بالزوج أو الزوجة»، حيث جاءت الخيانة الزوجية أولاً ثم «الإيذاء الجسدي مثل الخشونة والعنف والضرب، والإيذاء العاطفي مثل اللامبالاة والسخرية والإهانة والشتائم».

أسباب العنف الذكوري

تتعدّد أسباب عنف الرجل تجاه المرأة، ومنها:

• غياب وازع التقوى الذي يمثّل صمام الأمان في العلاقات الإنسانية، لاسيما التي يأمن فيها الإنسان من عقوبة القانون، علماً بأنّ التقوى لا تخص الإنسان المسلم فقط، بل نجد الحديث القرآني عن التقوى بصورة أكثر شمولية، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء**﴾ [النساء:١].

• غياب المعايير الأخلاقية عموماً في العلاقات الاجتماعية، تأسيساً أو معرفةً.

• تفريغ شحنات الغضب بموازاة الشعور بالتفوّق الجسدي.

• ترسّخ النظرة الدونيّة للمرأة تحت العناوين التالية: «المرأة ضلع أعوج، إنسان من الدرجة الثانية، من المخلوقات المسخّرة للرجل، ملكيّة خاصة بالرجل كالزوج أو الأب، حاجتها لإنفاق الرجل عليها».

• تعاطي الكحوليات والمخدِّرات.

• جهل الزوج والزوجة بحقوق الزوجة وواجباتها، وطبيعة العلاقة التي ينبغي أن تحيط بأجواء بيت الزوجية.

• استسلام المرأة لعنف الرجل استسلاماً مطلقاً، ممّا يشجعه على التمادي.

• عقد نفسية من قبيل شعور الرجل بتفوّق المرأة عليه في المستوى العلميّ أو الوظيفيّ مثلاً، أو ردود فعل من الرجل لبعض صور عنف المرأة ضدّه، كعنف الأم تجاه أبنائها الذكور أثناء طفولتهم.

• دور وسائل الإعلام في تدعيم هذا التمييز.

• استفزاز المرأة للرجل (زوجاً أو أباً أو أخاً أو ابناً أو غير ذلك) نتيجة الجهل في أسلوب التعامل، أو لغير ذلك.

• غياب التشريعات التي تحمي المرأة، وحضور قوانين وتشريعات تسمح بممارسة هذا العنف، أو التقصير في تنفيذ القوانين المجرّمة له، ممّا يدفع المرأة للامتناع عن اللّجوء إلى القانون، وتقوّي الرجل بهذا الخلل. وقد عايشنا ظروف انتحار الفتاة المغربية (أمينة الفيلالي) ذات الخمسة عشر ربيعاً بسبب إجبارها قانوناً على الزواج من مغتصبها، الأمر الذي لم تتحمّله فانتحرت!

معالجة الظاهرة

وممّـا سبق يتّضح أنّ المعالجات يجب أن تتنوّع، لتنوّع أسبابها وأطرافها، وهي بالتالي لن تقضي على المشكلة بل ستخفّف من حدّتها بشكل كبير، ومن أهمّها:

١ـ معالجة أخلاقية قيمية بترسيخ حالة التقوى والردع الذاتي عند الإنسان.

٢ـ معالجة توعويّة للرجل والمرأة حول المفاهيم الخاطئة التي ذكرنا بعضها.

٣ـ معالجة قانونية بسنّ تشريعات من شأنها التقليل من هذه الظاهرة، وتقريع المعتدي، على ألا تكون متعارضة مع التشريعات الإسلامية الأوّلية في إطار الحقوق والواجبات الزوجيّة، وولاية الأب على ابنته، وغير ذلك.

٤ـ معالجة اقتصادية بدعم الحقوق الاقتصادية والاجتماعية للمرأة الفقيرة أو ذات الدخل المحدود.

٥ـ إعادة صورة العلاقة الزوجية لوضعها التكويني الذي تحدّث عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الروم:٢١].



تمتاز صلاة الجمعة عن سواها من الصلوات بالتشريع الإلهي باستبدال ركعتين منها بخطبتين، وما ذاك إلا للأهمية التي يُفترض بإمام الجمعة أن يوليها لمضمون الخطبتين، وضرورة حرص المصلّين على تلّقي المعرفة الإيمانية والروحية والأخلاقية والفكرية والسياسية والاجتماعية والتربوية من خلالهما في صورة عصارة لأهم ما يمسّ حياتهم، وخلاصة ما مرّ عليهم خلال أسبوعهم المنصرم.

موعظة وموقف

وقد روى الحرّ العاملي في وسائل الشيعة عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في بيان معالم الخطبتين قوله: «**إنما جُعلت الخطبة يوم الجمعة لأنّ الجمعة مشهدٌ عام، فأراد أن يكون للأمير سببٌ إلى موعظتهم وترغيبهم في الطاعة وترهيبهم من المعصية، وتوقيفهم على ما أراد من مصلحة دينهم ودنياهم، ويخبرهم بما ورد عليهم من الآفاق من الأهوال التي لهم فيها المضرّة والمنفعة... وإنّما جعلت خطبتين لتكون واحدة للثناء على الله والتمجيد والتقديس لله عزّ وجل، والأخرى للحوائج والأعذار والإنذار والدعاء، ولما يريد أن يعلِّمهم من أمره ونهيه ما فيه الصلاح والفساد**».

وبالتالي فمن المهم أن تراعى الأطر العامة لخطبتَي صلاة الجمعة كما وردت في الحديث السابق، وهو ما استرسل في بيانه الإمام الخميني رحمه الله بعبارة جلية في هذا المضمون حيث قال: «ينبغي أن يكون الخطيب بليغاً مراعياً لمقتضيات الأحوال بالعبارات الفصيحة الخالية عن التعقيد، عارفاً بما جرى على المسلمين في الأقطار سيّما قطره، عالماً بمصالح الإسلام والمسلمين، شجاعاً لا يلومه في الله لومة لائم، صريحاً في إظهار الحق وإبطال الباطل حسب المقتضيات والظروف.. أن يذكر في ضمن خطبته ما هو من مصالح المسلمين في دينهم ودنياهم، ويخبرهم بما جرى في بلاد المسلمين وغيرها من الأحوال الّتي لهم فيها المضرّة أو المنفعة، وما يحتاج المسلمون إليه في المعاش والمعاد، والأمور السياسيّة والاقتصاديّة ممّا هي دخيلة في استقلالهم وكيانهم، وكيفيّة معاملتهم مع سائر الملل، والتحذير من تدخّل الدول الظالمة المستعمرة في أمورهم، سيّما السياسيّة والاقتصاديّة، التي تدفع إلى استعمارهم واستثمارهم. وبالجملة: الجمعة وخطبتاها من المواقف العظيمة للمسلمين كسائر المواقف العظيمة، مثل الحجّ والمواقف الّتي فيه والعيدين وغيرها، ومع الأسف أغفل المسلمون عن الوظائف المهمّة السياسيّة فيها وفي غيرها من المواقف السياسيّة الإسلاميّة».

نقد بنّاء

وليس بالضرورة أن تكون الخطبة الثانية مجرّحة وناقدة بالصورة التي قد تستدعي بعض النتائج السلبية كما قد يتوهّم البعض، فالحديث فيما يهمّ أمور الناس ويعالج قضاياهم الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية وبما يَرُدّ على الشّبهات ممكن دون الدخول في المحذور السّابق الذي قد يكبّل أيدي البعض عن الانطلاق في الخطبة.

كما وأن تناول هذه القضايا بالصورة المتزنة يمثّل سبيلاً لمعرفة كلمة الإسلام والموقف الشرعي منها، أما الانعزال عن تلك القضايا والعزوف عنها فيمثّل خسارة على أكثر من صعيد.

مقوّمات الخطبة الناجحة

ومن الواضح أنّ طرح هذه القضايا تستدعي من الخطيب عدّة أمور منها:

متابعة دائمة للتحديات الفكرية والأخلاقية المستجدّة ومعالجتها بالأسلوب الأمثل بعيداً عن الانفعال.

متابعة حثيثة لأحداث السّاعة على المستويين المحلّي والدولي، خبراً وتحليلاً.

تنويع مصادر المطالعة في المجالات الفكريّة والثقافية والاجتماعية والتربوية والنفسية.

الاستئناس بآراء أهل الاختصاص في المجالات المختلفة.

تجنّب طرح القضايا النظرية البحتة، أو البعيدة عن اهتمام الناس، أو المعالجات غير الواقعية.

عدم الاستغراق في القضايا التاريخية بصورة تُبقي التاريخ ماضياً لا ينطلق منه الإنسان لدراسة واقعه ومعالجة أوضاعه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

لا للسبّ والإهانة

يأتي كلّ هذا مع التأكيد على ضرورة الابتعاد عن طرح ما من شأنه أن يبثّ الفتنة ويحرّض على الفُرقة، وذلك من خلال الالتزام بالقاعدة القرآنية: ﴿وَلاَ

تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّواْ اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨].

وقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَ دِمَاءَهُمْ وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ وَيَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ».

تفاعل وتعاون

ومن جانب آخر فإنّني أدعو الإخوة المصلّين في المساجد لأن يتعاونوا مع أئمّة المساجد في هذا الشأن، وأن يتواصلوا معهم في بيان قضايا السّاعة، وما يهمّ الناس، وأن يحثّوهم على معالجتها بالصورة السليمة، كما وأدعوهم إلى إعطاء الأهمية لحضور الخطبتين وللاستماع إليهما، فعن محمد بن مسلم عن الإمام أبي عبد الله جعفر بن الصادق عليه السلام أنه قال: «**إذا خطب الإمام يوم الجمعة فلا ينبغي لأحد أن يتكلم حتى يفرغ الإمام من خطبته**».

وأخيراً أقول إنّ تنوّع وسائل الإعلام وتبادل المعلومات ويُسرَها ومساحة الحرية يحمّلنا مسؤولية توظيفها لنشر خطب الجمعة ذات العطاء المسؤول، وعدم حصرها بين جدران المسجد، وذلك لتعميم الفائدة، وأدعو الفضائيات على وجه الخصوص للاهتمام بنقلها بشكل أفضل ممّا هو عليه الآن.

❀❀❀

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ:٤٦]، تدعو الآية لامتلاك الإنسان من الإرادة والشجاعة ما يدفعه للابتعاد عن العقل الجمعي الذي ينساق وراءه دون تفكير في مدى صحة متبنّياته فيتبعه ـ غالباً ـ اتباع الأعمى ويردّد مقولاته دون وعي، وكما جاء في بعض النصوص العلمية: «العقل الجمعي يمانع بطبيعته عملية التغيير بعكس العقل الفردي، إذ يميل الإنسان بمفرده لحساب العواقب، وهذا الحساب هو ما يميّز العقلانية عن اللّا عقلانية، ولكن إذا انجرف العقل الفردي لشروط العقل الجمعي فحينئذ سيُصاب حتماً بمعظم آفاته كالانفعال والغضب». بالطبع فإن هذا لا يعني أن يكون الإنسان متمرّداً على القرارات الجماعية، فليس هذا هو المراد من العقل الجمعي، بل المقصود أن لا يقع الإنسان تحت تأثير آراء الآخرين بالمستوى الذي يلغي فيها عقله، ويجمّد تفكيره، ولا يحاول أن يكوّن لنفسه رأياً وفق الأسس السليمة.

فضل الله والعقل الفردي

وهذه الميزة من الأمور التي تجلّت في شخصيّة المرجع والمفكّر الراحل السيد محمد حسين فضل الله (رضوان الله عليه). صحيح أنّ شجاعته هذه

وابتعاده عن العقـل الجمعـي جعلـه عُرضة لكثير من النقد والتجريح والإسـاءة البالغة التي لم تكـفّ عنـه حتى بعد أن غادر هذه الدنيا الفانية إلى جوار ربّه، إلا أنها ـ شجاعته ـ قدّمت منهجاً علمياً رصيناً، وفتحت آفاقاً رحبة في فهم الدين وعلاقته بالحياة، وحمّلتنا مسؤولية أن نفكّر قبل أن نقول نعم أو لا، وهو الذي كان دائماً يكرر: «لا تعيروا عقولكم للآخرين ، ولا تسمحوا لأحد بأن يملأ عقولكم».

في عام ٢٠٠٣ حاورته جريدة الرأي العام حول فتواه في الاستنساخ وسأله الصحفي إن كان قد خاف أو تردّد في طرح رأيه في الأمر فقال: «لـم يكن عندي خوفٌ من المعارضة للرأي، لأنَّني أعتقد أنَّ على الإنسان أن يقول كلمته بغضّ النظر عن ردود الفعل، طالما هو يؤمن بأنَّ كلمته تمثِّل الحقيقة.. وإذا كانت هناك أيّة وجهة نظر أخرى، فأنا مستعدّ لأن أدخل في الحوار معها. فإذا اكتشفت الخطأ فإنَّ لديّ الشجاعة للتراجع عن رأيي».

إنّها في الواقع شجاعة في إطلاق الفتوى، وشجاعة في الحوار، وشجاعة في التراجع إن قام الدليل على وقوع الخطأ.. شجاعة ترجمها إلى الإفتاء بما قام عليه الدليل ولو خالف فتاوى الفقهاء على مدى قرون.. وشجاعة قلّل من خلالها كثيراً من (الاحتياط الوجوبي) غير المبرَّر الذي يعقّد حياة المكلَّفين.. وشجاعة دفعته للأخذ بالمعطيات العلمية اليقينيّة في تشخيص الموضوعات ولم يكتفِ بفرض (إن كان كذا فكذا، وإن لم يكن فلا)، فقدّم للناس الفتوى عن علم وتشخيص خارجي للمسألة.

وبعد هذا فهي شجاعة علميّة في مواجهة ردود الفعل العنيفة حتى من أقرب الناس إليه، وهو ما كرّره في أكثر من موقف: «هذا ما أتحدث به دائماً. ولهذا، في كلّ مسيرتي لن أجامل أحداً.. قلت لهم عندما ترونني لا أمثّل قناعاتي، فلن أكون موجوداً».

شجاعة عن وعي

وفي قناعتي أنّ شجاعته انطلقت عن وعي لأهميّة هذا العنصر في تركيبة الشخصية الرسالية بما يمكّنها من أداء دورها لا في حالات الرخاء فقط، بل أن تتجلّى كلمة الحقّ وينبلج الموقف الحاسم عند الشدة، دون تردّد أو تلكّؤ بداعي التوقّف عند الشبهات، أو الهروب من الفتنة، أو الخوف على المصلحة العامة، ممّا قد يُبعد الإنسان عن تأدية الواجب، أو التخلّي عن مسؤولية (القائد) حين تلتف السّاق بالسّاق.

وأراه يتمثّل ما كتبه هو ضمن حديثه عن جده أمير المؤمنين علي عليه السلام: «كان كلّ شيء في شخصيّته عليه السلام في خدمة الله، وهكذا كان سيفه وبطولته وشجاعته، لا في خدمة الذات، وإنّما في خدمة الله. لم تكن الشجاعة والبطولة عنده حالة ذاتيّة، ولم يكن السلاح ملكاً شخصيّاً له، فهو يعتبر ذلك ملكاً لله، لهذا كان لا يحرّك سلاحه إلاّ في المواقع، التي تتطلّب منه أن يحرّك سلاحه فيها، كان ينتظر أمر الله وينتظر المعركة التي يشعر أنّ الله يرضى بها، ولا يسمح لنفسه أن يدخل في أيّة معركة يمكن أن لا تكون في رضا الله، أو يمكن أن تسيء إلى الإسلام» بمثل هذه الرؤية لشجاعة علي عليه السلام انطلق في حياته ليكون الشجاع لا في خدمة الذات، وإنّما في خدمة الله.

دعوة للآخرين

ولذا كان يطالب الآخرين بأن يعالجوا مشكلة التردّد والخوف عندهم كي يكونوا بمستوى المسؤولية، سواء في المجال العلمي والفكري أم في المجال السياسي أم في المجال الدعوي، وهو القائل: «لنكن مقاومةً في الفكر تواجه كلَّ الظالمين والمستكبرين، مقاومةً تحاول أن تنتج عناصر القوّة من داخل الأمة،

تنتج عناصر القوّة حتى نتواصى بالحقّ فلا يسقط الحقّ بيننا، ونتواصى بالصبر فلا نسقط أمام الجزع. تعجبني كلمة قالها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما أرسل شخصاً ورجع يُجبّن أصحابه ويجبّنونه في واقعة خيبر، وأرسل شخصاً ثانياً ورجع يجبّن أصحابه ويجبّنونه، قال: «**لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَه ويحبّه اللهُ ورسولُه كرّارٌ غير فرّار**» لنكن هذا الرجل، حتى نشجِّع أصحابنا ويشجّعونا. ولنتحدّث عن الشجاعة ولا نتحدّث عن الضعف».

شجاعة سياسية

نعم، لم يَهَب السيد كلَّ محاولات الاغتيال والصواريخ والمتفجرات التي استهدفته شخصياً، وراح ضحيّتها المئات من الأبرياء، واشتركت فيها دول استكبارية وجهات استخبارية عديدة كانت ترى فيه الأب الروحي للعمل الإسلامي المقاوم، فأرادت أن تُسكت ذلك الصوت، ولكنهم لم يعرفوا من هو محمد حسين فضل الله.. حسبوا أن رصاصتِهم (التي إن لم تصب ستُدْوش) وتُزعج وتُفقد السيد توازنه، ليقبع بعدها في زاوية حجرته، مفضِّلاً الدور التقليدي لعالم الدين.. ولكنَّ كيدهم عاد إلى نحورهم، وفي كل مرة ينطلق السيد من جديد في ميدان المواجهة مع العدو كجدِّه حيدرة عليه السلام أسداً هصوراً ازداد قوة إلى قوته وعزيمة إلى عزيمته. وكما أنه لم يهب محاولات التصفية الجسدية فإنه كذلك لم يهب مواجهة كلّ محاولات القتل المعنوي الذي يبقى معه الإنسان حياً جسداً إلا أنه يفقد حرية التفكير وحرية الكلمة وحرية الموقف، ليكون خاضعاً لهذا الشخص أو لتلك الجهة خضوعاً ذليلاً، وآمن أنّ عليه أن يكون شجاعاً في مواجهة الأمرين معاً. وهكذا كان الشجاع أيضاً في الموقف السياسي، وهو الذي عاش في بلد لم يذق طعم الراحة منذ أمد بعيد، في أجواء الحرب الأهلية، وفي الاحتلال الصهيوني، وفي كلّ النزاعات الطائفية والحزبية، وفي التدخلات

الإقليمية، وفي كلّ الخروقات الأمنية وأجواء الصراع، فعاش السيد في عمق الحدث، فكانت تحليلاته الدقيقة تسبق الحدث، وكانت توجيهاته الأبوية تفرض احترامها على القريب والبعيد، لا يداهن في ما يقول، ولا يجامل على حساب المصلحة العامة، ولذا عرف الجميع في موقفه السياسي: الإخلاص والصدق والبصيرة.. والشجاعة. كما أنه لم يؤطّر نفسه في حدود لبنان، بل كانت حركته السياسية فكراً وتفاعلاً وإحاطةً وتربيةً وتوجيهاً ذات شمولية واسعة، فقصدته الوفود الدولية والشخصيات من ذوي الاهتمام السياسي لينهلوا من عطائه الذي لا يعرف المجاملة السياسية. أعلى الله مقام المرجع الراحل وجعله في أعلى عليين مع أجداده الطاهرين.

لماذا ضيّقنا دائرة التقوى؟

اعتبر الله سبحانه وتعالى أنّ الصيام في شهر رمضان من عوامل تحقّق التقوى حيث قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة:١٨٣] وذلك فيما لو أحسن الإنسان الاستفادة من هذا الشهر، لاسيما بلحاظ كلّ العوامل المساعدة الاستثنائية الواردة في خطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كاستجابة الدعوات ومضاعفة الثواب وفتح أبواب التوبة والجنان وتكبيل الشياطين. والتي يقدّمها الله لعباده في هذا الشهر، ويُفترض بها أن تساعد المسلم على تحقيق هذه الغاية المهمّة.

مصلحية أم قصور

وعلى الرّغم من سعة مفهوم التقوى ودلالاته، إلا أننا عادةً ما نعمل على تضييقه، إمّا رعايةً لمصالح شخصية تستدعي تصويره بما نشاء، وإما قصوراً في فهم حقيقة التقوى. فعندما نأتي إلى آية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة:٢٧٨] أو آية: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ [المائدة:٩٦]، تجدُ أحدَنا يتوقّف مليّاً في التفكير في كيفية تفعيل

التقوى في هذه العناوين.

وفي المقابل عندما نأتي إلى مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ولا يغتبْ بعضُكم بعضاً أيحُبُّ أحدُكم أن يأكلَ لحمَ أخيهِ مَيّتاً فكرهّتمُوه وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢] تجد سوء الظن حاضراً بقوة في تفسير الأمور، فالأصل عندنا سوءُ نيةِ الآخر. بينما يفترض أن يكون الأصل هو البناءُ على حسن النيّة. فعلى الرغم من أن بعض الظنّ إثم إلا أنه يجب علينا أن نجتنب كثيراً من سوء الظن وفق الأمر الإلهي.. وهذا جزء من فاعلية التقوى، ومنه تقوى الصيام.

تقوى العلاقة الزوجية

وهكذا عندما نأتي إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا*فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق:١ـ٢] تغيب التقوى مجدّداً، فتجدُ كلَّ شيء، من سُبابٍ وبهتانٍ ومنعِ حقوق وهتكِ حرمات وغيبة وفتن.. إلا التقوى، لأن التقوى عند البعض محبوسة في دائرة النجاسة والطهارة ومخارج الحروف في قراءة السور القرآنية وما شابه.. وهي أمور لا بدّ من مراعاتها ولكنّها ليست الوحيدة في هذا الإطار.

تقوى النزاعات

وهكذا عندما نأتي إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠]، نجد أنّ السعي للإصلاح جزء

من التقوى. فهل فعلاً ننظر إلى هذا الأمر من هذه الزاوية؟ أم نعتبره أمراً كمالياً يعتمد على المزاج الشخصي؟

ثم إنّه عندما تتحدّث الآية عن المؤمنين، هل تقصد خصوص أتباع المذهب الذي أؤمن به، أم كلَّ مَن دخل في دين الله الإسلام، بغضّ النظر عن الانتماء المذهبي؟ لقد كان أمير المؤمنين علي عليه السلام واضحاً صريحاً دقيقاً حين قال للأشتر: «**الناس صنفان إمّا أخٌ لكَ في الدّين أو نظيرٌ لكَ في الخلق**». فكلّ مسلم هو أخ في الدين.

وبعد ذلك.. هل هذا الإصلاح يخصّ التخاصمات في الدوائر المحدودة كخصومة بين زوجين أو صديقين؟ أليس السعي للتقريب والتعايش بين المذاهب ورفع أسباب الخصومات بين أتباعها جزءاً رئيسيّاً من هذا الإصلاح، إن لم يكن من أهمّه؟ فما بال الكثيرين منّا اليوم لا همّ لهم إلا البحث عن موارد الخصومة والشّقاق وبثّ ذلك؟ لماذا نتحوّل إلى أداة بيد الصهاينة والاستكبار وبيد أعدائنا؟ لماذا نذبح الإسلام كلّ يوم مرّات ومرّات باسم التعصّب المذهبي؟

تقوى الكلمة

ثمّ هل إثارة النزاع من التقوى؟ يقول سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا**﴾ [الأحزاب: ٧٠] فعندما لا يكون القولُ سديداً، فلا تقوى إذاً.

فلماذا لا يتوقّف الشيعي مرّات ومرّات أمام هذه الآية قبل أن ينشر مقطعَ فيديو أو نصّاً ما، يعمّق فيه الكراهية بين المسلمين بمقدار ما يقف أمام حديث يرتبط بالتحرّز من النجاسات مثلاً؟ ولماذا لا يتوقف السّني مرّات ومرّات أمام هذه الآية قبل أن يشتمَ الشيعة ويقذفَهم في أعراضِهم أو ينشر كلماتٍ يُخرج بها إخوانَه من الدين، بمقدار ما يتوقف أمام آية الربا وهكذا الشيعي أيضاً؟

فأين هم علماء الإسلام من كلّ هذا الانجراف نحو هاويةِ فتنةٍ عمياء يهرم فيها الكبير ويربو فيها الصغير؟ ألم تُلقَ عليهم الحُجّة إلى الآن؟ ونعوذ بالله أن يصل حال المسلمين ـ لاسيّما علماءهم ـ إلى ما وصفته الآية: ﴿**إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**﴾ [النمل: ٨٠].

الحرب الباردة

ولنتذكّر ما قاله الصحفي الأميركي المطّلع (سيمور هيرش) في سنة ٢٠٠٧ عن العمل على قدم وساق من أجل إشعال نار الحرب الباردة بين السّنة والشيعة، الوصف الذي ورد على لسان مارتن إنديك السفير الأميركي السّابق لدى الكيان الصهيوني، وذلك من خلال التعبئة الإعلامية حول فكرة الخطر (الشيعي)، والذي بتعبير الأستاذ فهمي هويدي تمثَّل تارة فيما سُمِّي بإقامة (هلال شيعي)، وتارة بالتخويف من التوسّع الشيعي في بلاد السّنة، وتارة ثالثة بإبراز إساءاتٍ لصحابة الرسول ولأمّ المؤمنين عائشة.. وكيف وظِّفت الكتب والقنوات الفضائيّة المأجورة والتجمّعات المتعصّبة عند الطرفين لتحقيق ذلك كلّه.

إن كان شهر رمضان هو شهر التقوى، فمن أعظم التقوى الإصلاح بين المسلمين، وإن من أعظم التقوى حسن الظنّ ببعضنا البعض، وإنّ من أعظم التقوى القول السديد.

❀❀❀

هَجْرُ القرآن

قال الله سبحانه في وصف الحال يوم الحساب: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

شكوى من النبي (ص) في إخبار عن المستقبل، شكوى تنمّ عن تألّم النبيّ (ص) وتبرّئه من واقع حال المسلمين، فهو يعلن أنّه لم يقصّر في ما كلّفه به ربّه، وأوصى المسلمين بالثقل الأكبر.. فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله(ص): **«إنّي قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله عزّ وجلّ حَبْلٌ ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي. ألا إنهما لن يفترقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض»**.

فما هي صور الهجران الذي حذّرت منه نصوص عديدة، كقوله تعالى: ﴿..وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلا﴾ [طه: ٩٩ـ١٠١]

وما هي الصورة المقابلة التي نُدِبَ إليها؟

البعض يتصوّر أنّ هجر القرآن يتمثّل في أن يقرأ الإنسان في المصحف المُهدَى إليه ولو بضع آيات، وحتماً أن ليس هذا هو المقصود.

أنواع هجر القرآن

١ـ هجر التلاوة: وهي الصّورة الأوضح والمتبادرة عادة، وقد جاء الحثّ على التلاوة حتى للإنسان المشغول ولو في الحدّ الأقل: «**ما يمنع التاجر منكم المشغول في سوقه إذا رجع إلى منزله أن لا ينام حتى يقرأ سورة من القرآن، فتكتب له مكان كل آية يقرأها عشر حسنات، وتُمْحى عشر سيئات**». وللأسف كأن البعض يريدون التعامل مع القرآن بصورة آلية، فيسألون: ما هي المدّة التي لا يجب على المؤمن هجر القرآن فيها تلاوةً؟ أو ما هو الحدّ الذي من بعده يكون الإنسان قد ارتكب المكروه في هجر تلاوة القرآن؟

فالمفترض أن يكون التعامل مع القرآن تعاملاً تلقائياً لا تعاملاً رياضياً بالأرقام، ومثل هذا التعامل الرقمي يدلّ بذاته على نوع من الهجران والعلاقة غير السليمة بين المسلم وكتاب ربه.

٢ـ هجر التدبّر والفهم: وهذا أقلّ تبادراً من المعنى الأول، فمن يتجنّب الهجران من النوع الأول، قد تجده يقع بكثرة في النوع الثاني، فيتحوّل إلى تالٍ لكلمات وجمل لا يدرك معناها، ولا يعرف فائدتها، وكيف يوظّفها في حياته.. هل كون القرآن نوراً كما في قوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا**﴾ [النساء: ١٧٤]، يكون بمجرّد التلاوة؟ قال تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾ [ص: ٢٩]. وعن السجّاد(ع) أنّه قال: «**آيات القرآن خزائن العلم، فكلّما فتحت خزانة فينبغي لك أن تنظر ما فيها**». وجاء الذمّ لمن لا يتدبّر فيه ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٤].

بالطبع لكلّ إنسان مستوىً من القدرة في فهم القرآن، وهذا شيء طبيعي، فالمهمّ السعي في هذا الإطار، بفهم المفردات ومعنى الآية ولو بشكل بسيط.

وهذا كان أسلوب النبيّ(ص) في تعليم القرآن حيث كان يُقرؤهم كلّ عشر آيات ثم يعلّمهم ما فيها من سبب نزول وحكم وغير ذلك.

٣ـ **هجر مرجعية القرآن:** التلاوة والتدبّر يفترض بها أن تكون مقدّمة لاعتماد مرجعية القرآن الكريم باعتبارها الأساس في تكوين المعرفة الدينية (العقيدة ـ فهم القرآن ـ الأخلاق ـ الأحكام الشرعية ـ التاريخ ـ المفاهيم الإسلامية .. إلخ) بحيث نقدّم حاكميّة النصّ القرآني على أيّ دليل آخر.

ليس هذا بمعنى إبعاد السُّنة عن دائرة اعتبارها مصدراً للمعرفة الإسلامية، فالسُّنة هي المصدر الثاني بعد القرآن، سواء للتشريع أو للدائرة المعرفية الإسلامية الأوسع، ولكن بمعنى أنّنا نقيّم الحديث من خلال القرآن، لا العكس كما يجري في كثير من الأحيان.

نظريّاً، لا خلاف بين المسلمين على اعتبار القرآن الكريم هو المصدر الأول والأساسي في تكوين المعارف الإسلامية في الحقول المختلفة كالعقائد والفقه والفلسفة والتاريخ والأخلاق والاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية وغيرها، وأنّه هو الميزان والمعيار في تصويب الآراء والأفكار. إلا أنّ الواقع يشهد أنّ هذا الدور المرجعيّ ووظيفته المتعدّدة الأطراف ـ عملياً ـ أمر غير متحقّق إلا في موارد محدودة.

وقد أشار أكثر من مفكّر وباحث إسلامي إلى خطورة استمرار هذا الوضع، وحذّر العلامة الطباطبائي في تفسيره من التبرير الذي سوّقه البعض بعدم إمكانية الاستفادة من ظواهر القرآن باعتبار أنّ علمها عند النبي(ص) والإمام(ع)، أو باعتبار أنّها ليست بحُجّة، وأنّ هذا يعني التخلّي عن وصية النبيّ(ص) بالثقل الأكبر، ثم قال: «وهذه الطريقة المسلوكة في الحديث أحد العوامل التي عملت في انقطاع رابطة العلوم الإسلامية وهى العلوم الدينية والأدبية عن القرآن مع أن

الجميع كالفروع والثمرات من هذه الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكلها كلّ حين بإذن ربّها، وذلك أنّك إن تبصّرت في أمر هذه العلوم وجدت أنّها نُظمت تنظيماً لا حاجة لها إلى القرآن أصلاً حتى إنّه يمكن لمتعلّم أن يتعلّمها جميعاً: الصرف والنحو والبيان واللّغة والحديث والرجال والدراية والفقه والأصول فيأتي آخرها، ثم يتضلّع بها ثم يجتهد ويتمهّر فيها وهو لم يقرأ القرآن، ولم يمسّ مصحفاً قط. فلم يبقَ للقرآن بحسب الحقيقة إلا التلاوة لكسب الثواب أو اتخاذه تميمة للأولاد تحفظهم عن طوارق الحدثان! فاعتبر إن كنت من أهله».

❀❀❀

مفارقات

من الآليات الفنيّة التي يستخدمها الأديب في الشّعر أو القصّة أو النثر أسلوب «المفارقة»، وهو يعتمد ـ بصفة أساسية ـ على عرض المتناقضات أو المتقابلات في مجال الشخصيّات والأحداث والقيم والمشاعر النفسيّة، فهو يقتضي وجود طرفين تربط بينهما علاقة «الضديّة». وقد تكون المفارقة في أبسط صورها بين عنصرين مفردين: كالأبيض والأسود، وقد تكون بين صورتَين، كلٌّ منهما ذات عناصر متعدّدة في تركيبة معقدة.

وتهدف المفارقة إلى إدانة واقع معيّن ببيان الفارق الشاسع بينه وبين المنشود، أو إنّها ـ على حدّ قول د. علي عشري زايد ـ «تقوم على استنكار الاختلاف والتفاوت بين أوضاع، كان من شأنها أن تتّفق وتتماثل، أو بتعبير مقابل: تقوم على افتراض ضرورة الاتفاق فيما واقعُه الاختلاف».

وقد اعتمد القرآن الكريم هذا الأسلوب، كما نلحظه في أحاديث النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وبعض أهل بيته عليهم السلام، وهذه مجموعة من النصوص التي تتحدّث بأسلوب المفارقات:

نماذج من المفارقات

ـ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ﴾ [الرعد:٥]، فالمفارقة هنا تكمن في إنكار الإنسان للمعاد، وهو يعلم أنّه خُلق من تراب ومن نطفة من ماء مهين، وهو يرى من حوله الحياة تدبّ في الأرض بصورة دورية، فحياة ثم ممات ثم حياة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

ـ قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أتيتك من قوم هم وأنعامهم سواء. فقال(ص): **ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ قوم علموا ما جهل هؤلاء ثم جهلوا كجهلهم!**

ـ عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «**عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب ويفوته الغنى الذي إيّاه طلب. فيعيش في الدنيا عيش الفقراء. ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء. وعجبت للمتكبر الذي كان بالأمس نطفة ويكون غداً جيفة. وعجبت لمن شكّ في الله وهو يرى خلق الله. وعجبت لمن نسي الموت وهو يرى الموتى. وعجبت لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى. وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء**».

أقول: المفارقة العجيبة في سلوك وتفكير البخيل أنّه إنّما يبخل خوفاً من الفقر، بينما يعيش هو في واقع الحال عيش الفقراء بسبب بخله، فمن أيّ فقر يفرّ وقد أوقع نفسه فيه ؟! وما أكثر المتعذّبين بسبب بخلهم في الإنفاق على أنفسهم وأسرهم، والذين ينتظرهم عذاب الآخرة لبخلهم في إخراج الحقوق الشرعية التي قرّرها الله على عباده كالزّكاة والخمس، والذين يخسرون الكثير

من العطاء الإلهي وهو سبحانه يقول وقوله صدق وحتم: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٥].

ـ وعنه عليه السلام: «**عجبت لمن يُقال له: إنّ فيه الشرّ الذي يعلم أنّه فيه كيف يسخط.. عجبت لمن يُوصف بالخير الذي يعلم أنه ليس فيه كيف يرضى**». فمن المفارقات أن يعلم الإنسان أنه مبتلى بسلبية ما، ومع ذا يغضب إذا نبّهه أحد إليها، أو يعلم أنه لا يتّصف بصفة إيجابية ما، ومع ذا يفرح إذا مُدِحَ عليها.. طريف أمر الإنسان!

ـ وعنه عليه السلام: «**عجبت لمن يرجو رحمة مَنْ فوقه كيف لا يرحم مَنْ دونه**».

ـ وعنه عليه السلام: «**عجبت لمن عرف سوء عواقب اللّذات كيف لا يعفّ**».

ـ عنه عليه السلام: «**عجبت لمن يتصدّى لإصلاح الناس ونفسه أشدّ شيء فساداً، فلا يصلحها ويتعاطى إصلاح غيره**».

ـ وعنه عليه السلام: «**عجبت لمن يرغب في التكثّر من الأصحاب كيف لا يصحب العلماء الألباء الأتقياء الذين يغنم فضائلهم، وتهديه علومهم، وتزينه صحبتهم**».

ـ وعنه عليه السلام: «**عجبت لمن لا يملك أجله كيف يُطيل أمله**».

ـ وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**عجباً لمن يحتمي من الطعام مخافة الداء كيف لا يحتمي من الذنوب مخافة النار**».

❀❀❀

«حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث أبيه وحديث أبيه حديث علي بن أبي طالب، وحديث عليّ حديث رسول الله(ص)، وحديث رسول الله قول الله عزّ وجلّ».

بهذه الكلمات كان الإمام جعفر الصادق عليه السلام يؤكّد القيمة العلمية لأحاديثة، فحين يتحدّث الصادق عليه السلام بحديث فإنّما يتحدّث به عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسند السالف الذكر، وقد أجمع كلّ من عرف الصادق أو آباءه، بأنّهم كانوا يحوزون من العلم والحفظ والتقى والورع ما يميّزهم عن سائر الناس، كيف لا وهم آل بيت النبوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

ولم تتوقّف حلقات هذه السلسلة عند الإمام جعفر الصادق(ع)، بل نجد حفيده عليَّ بن موسى بن جعفر(ع) يروي في جموع المحتشدين الحافّين به حين وصوله إلى مدينة نيشابور التي كانت تُعَد آنذاك من المراكز العلمية في العالم الإسلامي، يروي حديثاً عن رسول الله(ص) بهذه الصورة **«حدّثني أبي موسى الكاظم، عن أبيه جعفر الصادق، عن أبيه محمد الباقر عن أبيه زين العابدين عن أبيه الحسين عن أبيه عليّ بن أبي طالب عليهم السلام قال: حدّثني حبيبي وقرّة**

عيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم قال: حدّثني جبريل قال: سمعت ربّ العزّة يقول: لا إله إلا الله حصني، فمن قالها دخل حصني، ومن دخل حصني أمِن من عذابي». وقد نقل إبن حجر في صواعقه المحرقة عن الإمام أحمد بن حنبل قوله «لو قرأت هذا الإسناد على مجنون لبرئ من جِنّته». وقال الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء «هذا حديث ثابت مشهور بهذا الإسناد من رواية الطاهرين عن آبائهم الطاهرين، وكان بعض سلفنا من المحدّثين إذا روى هذا الإسناد قال: لو قرئ هذا الإسناد على مجنون لأفاق».

ثم تتواصل الحلقات إلى أحفاد الرضا من الأئمة عليهم السلام لتستمرّ ذات القيمة العلمية في ما يروونه، بعيداً عن احتمالات التحريف والدسّ والتضييع والنقصان، وقد روى أبو دعامة عن الإمام علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر والملقب بالهادي(ع) قوله «حدّثني أبي محمد بن علي، قال حدّثني أبي علي بن موسى قال حدّثني أبي موسى بن جعفر قال حدّثني أبي جعفر بن محمد قال حدّثني أبي محمد بن علي قال حدّثني أبي علي بن الحسين قال حدّثني أبي الحسين بن علي قال حدّثني أبي علي بن أبي طالب قال: قال لي رسول الله(ص): يا عليّ اكتب. فقلت: ما أكتب؟ فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، الإيمان ما وقر في القلوب وصدّقته الأعمال، والإسلام ما جرى على اللّسان، وحلّت به المناكحة. قال أبو دعامة: فقلت يابن رسول الله والله ما أدري أيهما أحسن، الحديث أم الإسناد؟! فقال: إنها لصحيفة بخطّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام وإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، نتوارثها صاغر عن كابر».

وإنما تبدأ حلقات هذه السلسلة السَنديّة عند عليّ عليه السلام لِمَا اختصّه به رسول الله صلى الله عليه وآله من العلم الذي أكّد أصحاب رسول الله على امتيازه به عليهم، وقد روى الإمام(ع) هذه الحالة قائلاً «كنت إذا سألتُ رسولَ

الله أجابني وإن فُنيت مسائلي ابتدأني، فما نزلت عليه آية في ليل ولا نهار ولا سماء ولا أرض ولا دنيا ولا آخرة ولا جنة ولا نار ولا سهل ولا جبل ولا ضياء ولا ظلمة إلا أقرأنيها وأملاها علي وكتبتها بيدي، وعلمني تأويلها وتفسيرها ومحكمها ومتشابهها وخاصّها وعامّها وكيف نزلت وأين نزلت وفيمن أنزلت إلى يوم القيامة دعا الله لي أن يعطيني فهماً وحفظاً فما نسيت آية من كتاب الله ولا علم من أنزلت».

وفي موضع آخر يقول «كانت لي منزلة من رسول الله(ص) لم تكن لأحد من الخلائق، فكنت آتيه كلَّ سحر فأقول: السلام عليك يا نبي الله، فإن تنحنح انصرفت إلى أهلي، وإلا دخلتُ عليه».



محتويات الكتاب

المقدّمة..... ٥
الكرامة الإنسانيّة..... ٧
الفطرة الإنسانية..... ١١
المفهوم الأخلاقي..... ١٥
صراع الغرائز..... ١٩
برّ الوالدين..... ٢٣
شكوك وأوهام..... ٢٧
الرحلة الغارورديّة..... ٣١
الموت وخطاب العقل والروح..... ٣٥
الإمامة الإبراهيميّة..... ٣٩
تكامل الولاء..... ٤٣
لا يحبّك إلا مؤمن..... ٤٧
يوم الفرقان..... ٥١
الشّفاعة في القرآن..... ٥٧
انتحار أمينة!..... ٦٣
خطبتا صلاة الجمعة..... ٦٩

المرجع فضل الله شجاعة الفكر والقول والعمل ٧٣
لماذا ضيّقنا دائرة التقوى؟ ٧٩
هَجْرُ القرآن..... ٨٣
مفارقات..... ٨٧
القيمة العلمية لأحاديث أهل البيت..... ٩١

❀❀❀



بطاقة تعريف

علي حسن غلوم علي

- المولد: 1965 / الكويت.
- التحق بالحوزة العلمية في مدينة قم المقدسة عام 1983 إلى 1991.
- والتحق بموازاة ذلك بالجامعة الإسلامية المفتوحة (دانشكاه آزاد إسلامي) تخصص أدب إنجليزي.
- حاصل على عدة شهادات في مجال الحاسب الآلي.
- أكثر من 40 مصنفاً في الأبواب المختلفة، من بينها (مفاهيم حركية من وحي القرآن في مجلدين ـ لا فتى إلا علي ـ الدرة الثمينة في أخبار مكة والمدينة ـ سلسلة حدائق الإيمان وبساتين الإيمان وهي 9 كتب دراسية في مادة التربية الإسلامية ـ محطات في الفكر والسياسة والأدب ـ منتقيات في 3 كتب ـ صلاة الجمعة ـ أحكام المريض والمصاب ـ رسالة المسجد).
- 14 برنامج حاسب آلي.
- إصدار أسبوعي لصفحة دينية متخصصة بعنوان منتقى الجمان تصدر في الكويت في جريدة الوطن منذ أكثر من 3 سنوات.
- 16 حلقة رسوم متحركة كرتونية تربوية للأطفال بعنوان مغامرات عجيب.
- عدة تمثيليات إذاعية وتسجيلات صوتية ومرئية موجهة للأطفال والشباب والمتزوجين بطريقة مميزة.
- تأسيس وإدارة دورات دراسات صيفية منذ عام 1991 ـ 2010
- المشاركة في عدة مؤتمرات عقدت في الكويت ولبنان وبريطانيا والولايات المتحدة.
- حالياً إمام جمعة وجماعة في مسجد سيد هاشم بهبهاني في الكويت
- المشرف الديني على حملة التوحيد الكويتية للحج منذ موسم 1413 ـ 1992 وحتى الآن.
- عضو هيئة أمناء مؤسسات المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله رضي الله عنه.